

المخطوطات المصورة بدير القديسة كاترينا
بسيناء

- ١ -

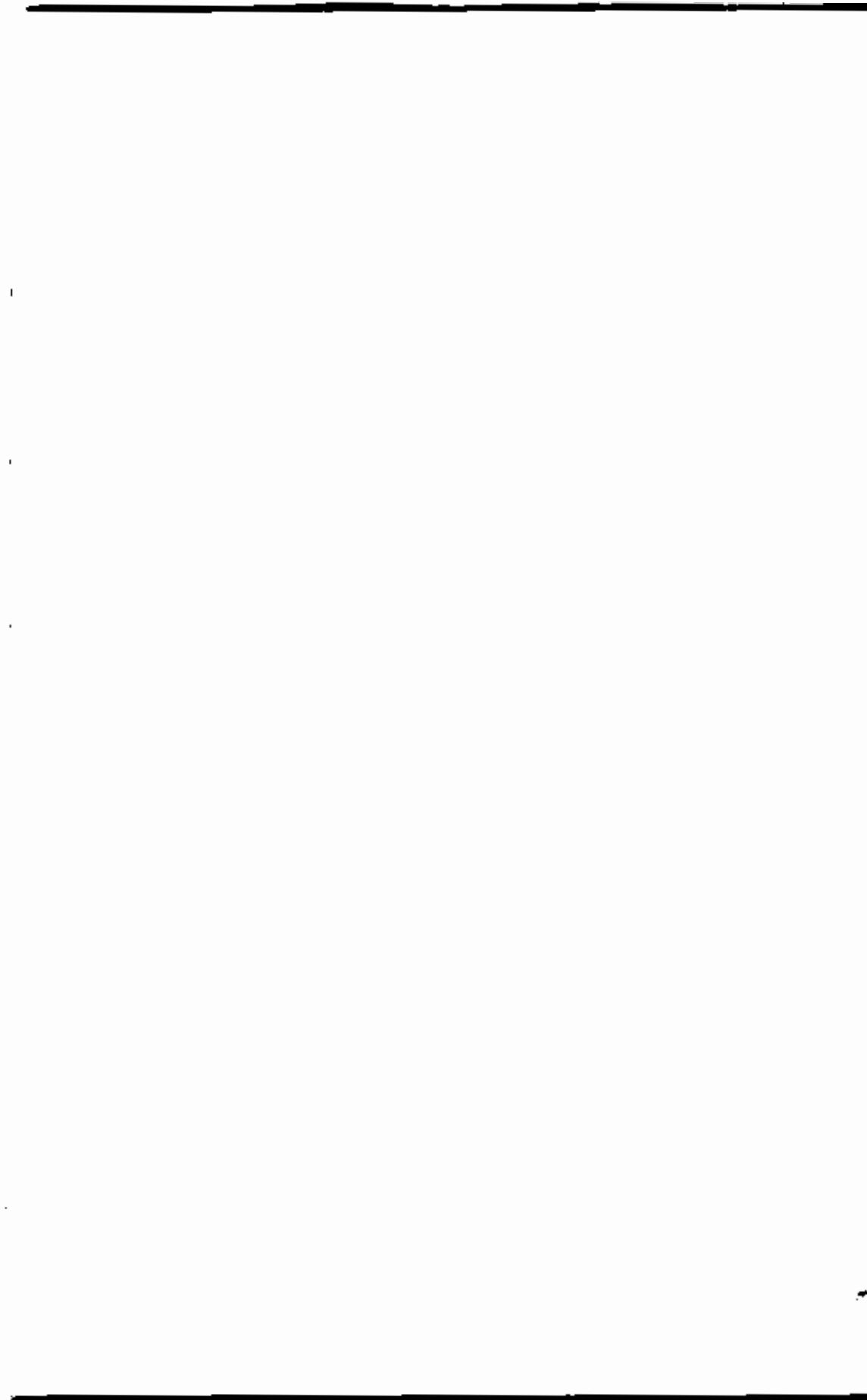
طبوغرافية العالم

للمراهب المصرى كوزما
المشهور بالبحار الهندى

للاستاذ الدكتور

سامى شنوده

الأستاذ المساعد بقسم الآثار



تضم مكتبة دير القديسة كاترينا بشبه جزيرة سيناء ثيفا وثلاثمائة وثلاثة آلاف من المخطوطات اليونانية والعربية والسريانية والعبرانية والأرمنية والحبشية والتبعية والفارسية والروسية واللاتينية ، منها الديني ومنها الأدبي والتاريخي (١) . وبين هذه المخطوطات عدد غير قليل وضحت نصوصه بصور أو برسومات تخطيطية (٢) لاتقل أهميتها عن النص نفسه لأنها تمثل الفن في فترات وعصور متعاقبة تمتد من القرن السادس إلى القرن السابع عشر بعد الميلاد كما أنها تمثل المدارس الفنية المتباينة في الاسكندرية وبزنطة وانطاكية بالإضافة إلى مدارس العصر الإسلامي وأشهرها مدارس سوريا والعراق ومصر .

وفي هذا البحث نتناول بالتفقد والتحليل منتخبات من سبع وخمسين صورة (٣) وردت في النسخة الخطية (سيناء - يوناني - ١١٨٦) لكتاب الطبوغرافيا المسيحية لمؤلفه الراهب المصري كوزما المعروف وبالبحار الخندي (٤) .

يضم هذا المجلد مائتين وأحد عشر رقفاً يبلغ طول كل منها ٢٥,٢ سنتيمتراً وعرضه ١٨,٨ سنتيمتراً وتحتوي كل صفحة على عمود واحد للكتابة . وقد ترك الناسخ في الصفحات فراغات لم يصب دائماً في تقدير مساحتها ، ملكت فيها بعد تارة بالرسومات التخطيطية التي تأتي في ذيل النص المرصحة له مباشرة ، وتارة أخرى بالصور المنسقة التي تأتي غالباً في أسفل الصفحة التي ورد فيها النص المتعلق بها .

(١) لغوم شخير ، تاريخ سيناء ، الحديث وجغرافيتها (١٩١٦) ص ٢١٨ .

(٢) Kenneth W. Clark, *Checklist of Manuscripts*, 1952, p. VII

(٣) نفس المرجع السابق، ص 22

(٤) *Τοπογραφία Χριστιανική, Κοσμά Αιγυπτίου μοναχου,*

Ινδικαπλευστός.

ورود الصور بهذه الطريقة يجعلنا نرى أن الناسخ كان شخصاً آخر غير الرسام برغم أن مثل هذا التخصص كان نادراً في ذلك الوقت المبكر لصناعة الكتب ، وكان الشائع حينذاك أن يتولى الناسخ نفسه مهمة التصوير والرسم وكذلك التجليد ، ويؤكد وجهة نظرنا هذه ما نراه من اختلاف واضح بين خط النص والخط الموضحة به الصور ، ومن جهة أخرى فإن وضع معظم الصور ، وخاصة تلك التي تسجل أحداثاً بعينها ، داخل إطارات متشابهة في زخرفتها والوانها التي استخدمت أيضاً في توضيح الصور مثل النبي للأرض ، والجبال ، والأزرق للسماء ، والأسود للسحب ، والذهبي للكواكب والنجوم ، ينهض دليلاً على أن رساماً واحداً هو الذي قام بتصوير المخطوط بأكمله .

وعلى ضوء ما ذكرنا ، وبمقارنة أسلوب الخط وصور مخطوطنا بنظائرها في نسخة خطية أخرى محفوظة بالفاتيكان تحت رقم (يوناني ٦٩٩) (١) ومورخه في القرن التاسع الميلادي ، يمكن القول بأن مخطوطنا يأتي في ترتيب النقل في وقت لاحق لمخطوط الفاتيكان ، هذا إذا حكمنا على أقدمية المخطوطات بمدى جودتها واتقانها ، أما إذا اعتبرنا تعدد الأحداث المسجلة بالصور ، فإن مخطوطنا - إن لم يسبق نسخة الفاتيكان - يكون على الأقل من نفس القرن التاسع . ومن ثم فنحن بازاء نسخة من أقدم النسخ الخطية التي وصلت إلينا للكتاب الذي ألفه كوزما في منتصف القرن السادس الميلادي .

يميل العلماء مسترشدين بالمؤرخ الروسي ايتالوف في دراسته عن الأصول الهلينية في الفن البيزنطي (٢) ، إلى إتخاذ صور كوزما الواردة في «الطبوغرافيا

C. Sternajels, *Miniatures della Topographia christiana di* (١)
Cosma Indicopleste, Cedico Vaticano greco 699. (Milan, 1908).

(٢) تلخيص للكتاب الروسي .

C. Wulff; *Raport of Kunstwissenschaft*, xxvi, 1903. cf; M.V. Anastas,
"The Alexandrian Origin of the Christian Topography of Cosmas
Indicopleustes, *Dombarton Oaks Papers*, III, 1946, pp.75---80; O.T.
Rice, *Byzantine Art* (Pelican, A 287) pp.21, 134.

المسيحية أساساً للدراسة من الإسكندرية في ترميز الكتب إذ اعتقدوا ،
 كأمر طبيعي أنها صورت كلها في نفس الوقت ونفس المكان الذي كتب
 فيه كوزما . لكننا لا نستطيع أن نلم بوجهة نظرهم هذه ، ولا بد من أن
 أن تقوم هنا بتحليل بعض صور المخطوط لتبين مدى الارتباط بينها
 وبين النص الذي توضحه ، ويقدر هذا الارتباط لتحديد لنا أصالة الصور ،
 فهل قام الفنان بعملها خصيصاً لتوضيح موضوعات «الطبرغرافيا المسيحية»
 أم أنه استعارها كلها أو بعضها - من أصول أخرى لنصوص أقدم زماً (١)
 خاصة ونحن نلاحظ أن صور مخطوطنا تناولت العديد من الموضوعات المتباينة
 فيها الأثرى والتاريخي ومنها الجغرافي والتقليدي والطبيعي ومنها ، وهي الغالية ،
 الأسطوري الديني .

يتناول المؤلف على مدى مقدمة واثني عشرة مقالة مشقة البرهنة على
 أن الأرض مسطح ، منبسط متاهضاً بذلك ما توصل إليه علماء العصر
 الهليني من كرويتها (٢) وذلك اتجاه يدل على مدى التدهور الذي أصاب
 علوم العصر الهليني أبان العصر البيزنطي ومع ذلك فهي فكرة على أية حال
 لا تخلو من طرافة وقد ظفرت بشعبية هائلة طيلة قرون عدة نظراً لما حيك
 حولها من براهين استمدتها كوزما ، كما يذكر في مقدمته (٣) من أحداث
 الكتب المقدسة «التي حرم على المسيحيين الشك فيها» ومن أقوال الانبياء
 والحكماء وذلك بالإضافة إلى اختباره الشخصية في الفترة التي سبقت اتخاذ
 الرهينة ملاذاً له من الحياة ومتاعها فهو يخبرنا بأنه بدأ حياته كوكيل أعمال
 لأحد تجار الإسكندرية الكبار في عصر جنينيان وشغل نفسه بالأمفار

K. Weitzmann,, *Roll and Codex*: Princeton, 1948 pp.112. (١)
et passim.

(٢) أنظر / ابراهيم نصفي : تاريخ مصرى من انبثاقه ، ١٩٦٦ ، الجزء الرابع
 من ٢٣٢ وما بعدها .

Προλογος 'Α, Προλογος Β' (٣)
Χριστιανική τοπογραφία περιεχτική παντός του κόσμου αποδείξεις
έχουσα εκ της θείας Γραφής, περί της ἀμφισθητείν χριστιανούς ου θεόν.

فجانب «الخلجان الثلاثة» كما يسمى هو نفسه البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي (١). ولا شك أنه قام خلال أسفاره بتسجيل كل مشاهداته حتى أصبح لديه سجل جغرافي وتاريخي حافل. فهو يصف بدقة واضحة حالة البلاد التي مارس التجارة فيها، وحياة شعوبها وأساليب معاملاتهم التجارية ويأتي بكثير من المعلومات الطريفة التي تساعد على تأييد نظريته (٢).

وأبرز مثل على ذلك وصفه لبلاد الحبشة وتلك الصورة الفريدة التي أوردها لأثر من آثار العصر الهلنستي لا نعرف عنه سوى ما ذكره كوزما في مقدمة كتابه «الطوغرافيا المسيحية» (شكل ١). فبالقرب من مدينة أدوليس *Πολις Ἀδουλῆς* (سواكن الحالية) التي مثلت بيوابة على يسار الناظر، رسم الفنان كرسيا للعرش البطلمي *Πτολεμαϊκὸς θρόνος Ἀδουλῆς* نقشت على جانيه صورتان لشخصين بعلامح وخصائص ماورك البطالمة (٣) فكلاهما يرتدي الملابس الملكية وعلى رأس كل منهما تاج يشبه تيجان الشمس المشخصة (شكل ١٣) إلى جانب الكرسي أقيمت قاعدة يعلوها تمثال لرجل بالملابس العسكرية وقد أمسك بيمنه رمحاً أو مدراًة، بينما أمسك درعاً بيده اليسرى وقد نقشت على القاعدة عبارة «الملك العظيم بطلميوس» *Βασιλ... μέγας Πτολεμαῖος* وفي أعلى الصورة نجد ثلاثة من الجنود الأحباش الراجلين *Αἰθιοπες Παζενοντες* وكانهم في الطريق إلى مملكة اكسيوم *Ἡ Ἀξιωμα* التي مثلت بمدينة محصنة على يمين الناظر ويتضح لنا من النص الوارد في مقدمة الكتاب أن المقصود بالملك العظيم بطلميوس هو بطلميوس الخير *Ευεργετες* ثالث ملوك البطالمة (٢٤٧ - ٢٢٢ ق. م) الذي أنهز فرصة السلم الذي عقده أواخر أيامه مع جيرانه

Of. Morey, C.R., *Early Christian Art*, Princeton, 1953, pp. 79 ff. (١)

Runcimann, *Byzantine Civilisation*, 1959, p. 165 et passim. (٢)

(٣) بطلميوس الثالث أول من وضع على رأسه تاجاً على شكل الشمس المشعة - انظر

Gabriel Hanataux, *Histoire de la Nation Egyptienne*, Tome III, p. 56.

في الشمال ليوجه ضرباته إلى القبائل الاثيوبية على حدود مصر الجنوبية ، وقد تم له اخضاعهم لسيطرته ثم تقدم حتى وصل إلى مدينة أدوليس على البحر الأحمر ، وهناك أقام تمثالا للاله مارس إله الحرب - تعبيراً عن شكره على ما حياه الاله من نعمة النصر ، كما أقام تذكاراً على شكل كرسي للعرش من الرخام الأبيض على جانبيه صورنان لهرقل وهيرميس وعلى جوانبه الأخرى نقشت كتابات باليونانية أوردها كوزما في نصه على أنها من أعمال بطلميوس الجير (١)

هذه اشارة تاريخية أثرية عابرة أوردها كوزما ، دون سواه ، ليثبت قيامه برحلات إلى أماكن نائية من العالم ، أكدت له أن الأرض مسطحة وليست كروية أو مستديرة . ولا يسعنا نحن الا أن نقرر أن كوزما قد أثبت ما رآه بعينه ولم يعتمد على الرواية أو النقل كما لا يعنا أيضاً الا الاعتقاد بأن الكتاب الذي خطه كوزما بنفسه كان يحتوي على مثل صورتنا هذه التي لا شك قد رسمت لتوضيح النص .

ولكن الزعة الدينية لا تلبث أن تغلب على كوزما ، بوصفه راهباً ، فهو يرجع إلى التوراه وإلى سفر دانيال بالذات (دانيال ٧ : ١ وما بعدها) ليفسر لنا سيطرة البطالة (٢) والمقتولين على أنها تحقيق للرويا التي يرويها دانيال حين خرجت من البحر أربعة حيوانات عظيمة ، الأول كالأسد والثاني كالذئب والثالث كالتمر وبعد هذا يأتي الحيوان الرابع هائل وقوي وشديد جداً وله أسنان من الحديد وله عشرة قرون ، أكل وسمح وداس الباقى بأرجله .

(١) يذكر Salt أن النسخ كما أورده كوزما يرجع بين نصين. اسما بطلميوس الجير والآخر تلك أسمر من معوك الاحباش .

Salt, *Travels in Abyssinia*, 1814, p. 453.

انظر أيضا :

Smith *Dic. Gr. & Rom. Bibliography of Mythology*, III, p. 583.

وأیضا :

Gabriel Hanotaux, *Histoire de la Nation Egyptienne*, Tome III, p; 56.

Fol. 30v. Παραγραφή εις τὸν προλεγμαίων. (٢)

وتوضيحا لهذا لجأ الرسام إلى تسجيل تلك الرؤيا في صورة (شكلى ٢ ، ٣) تمثل ملاك الرب جالسا في جب الأسود (مع دانيال) بينما يتواجد أمامه ملوك الأرض الأربعة محتطين صهوة أربعة حيوانات مجتحة الأول على شكل أسد وهو ملك بابل والثاني على شكل دب وهو لملك الميديين والثالث رأسه رأس نمر وعليه ملك الفرس وأخيراً لحيوان يحمل على رأسه قروناً ويمتطيه ملك وصف «بالمقدوني» .

ويفتح كوزما كتابه الثانى (١) بسرد النظرية الخاصة بشكل وحالة العالم بأكله كما وردت في الكتب المقدسة، وهو ما تمثله الصورتان (رقم ٤ ، رقم ٥) بكل ما فيها من بساطة وإيجاز ، : فالأرض المسكونة أو المعمورة *χη οικουμένη* عبارة عن مستطيل طوله من الشرق إلى الغرب أكثر من ضعف عرضه من الشمال إلى الجنوب وتظهر الشمس في الجانب الأيمن حيث الشروق *ανατολη* بينما تلبس كأنها نصف مخفية في الجانب الغربى *δύσις* من المعمورة .

ولكن سرعان ما يجد كوزما أن المشكلة ليست بهذه السهولة فيعاود الرد على معارضيه ويلجأ إلى سفر التكوين وإلى ما تصوره علماء النسطوريين في سوريا من شكل الكون ليثبت أن الأرض حقاً مسطحة وان الكون أشبه شيء بصندوق يرتكز على الأرض (شكل ٦) ، الجزء العلوى منه يتخذ شكل نصف أسطوانة مطحها العلوى المحذب يمثل السماوات التى يتوسطها صورة تمثل روح الله يرفرف على وجه الماء (سفر التكوين ١ : ٢) بينما يفصل الجبل *στερεωμα* بين السماوات وبين الجزء الأسفل من الصندوق والمياه المحيطة (*ωκεανος*) بالأرض . أما شروق الشمس *ηλιος ανατελω*

(١) *Λογος Β' : 'Υποθεσις χριστιανικαί περί σχηματῶν καί τοποθεσιᾶς παντος τοῦ κοσμοῦ ἐκ τῆς θείας Γραφῆς τὰς ἀποδείξεις ἔχειται.*

لمراجعة نص مخطوطنا حل النصوص الواردة في نسخ أخرى يمكن الرجوع إلى
Migne, *Patrologia Graeca*, LXXX 111;

لترجمه الانجليزية انظر

J. W. Mc Crindle, *The Christian Topography of Cosmas*, London, 1897.

وعروبها $\eta\lambda\iota\omicron\varsigma\ \delta\upsilon\upsilon\upsilon\upsilon\upsilon$ فيفسرهما كوزما بوجود هذا الجبل المخروطي الشكل والذي تدور حوله الشمس مرة كل يوم (١) .

لقد اعتمد كوزما في تصويره للكون على ما جاء في التوراة (سفر الخروج) من تعليقات الرب لئيبه موسى عن تابوت العهد (شكل ٧) وخيمة الاجتماع (شكل ٨) حتى لقد أفرد فصلاً خاصاً - هو الكتاب الخامس (٢) - أورد فيه بالإضافة إلى ما سبق رسومات تخطيطية للاحجية والتائر وكذلك للأدوات الذهبية وغيرها مما أوصى بصنعها (شكل ٩) وهما في هذا المجال واجهة تابوت العهد (شكل ٨) ذات السطح المجدب مثلها مثل (شكل ١٠) الذي أورده كوزما لتوضيح نظريته .

يتضمن هذا الكتاب الخامس فصلاً آخر عن الجماع الأنبياء والرسل واتقائهم على أهمية شكل الكون كما تصويره كوزما - وأهم ما اعتمد عليه كوزما في هذا الصدد قيام نوح ، بارشاد وتوجيه من الله ، ببناء فلك لينجوه من الطوفان (سفر التكوين : ٦) فلقد أمر الله ببناء فلك (شكل ١١) من خشب «تجعل الفلك مساكن وتظليه من داخل ومن خارج بالفار» وكلفه الرب بأن يصنع كوة وهي التي مثلت في صورتنا وكان نوح يتطلع من خلالها ليستقبل الحمامة وفي فيها غصن الزيتون . كذلك أمر الله نوحاً بأن يجعل من الفلك مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية وهو ما يتفق تماماً وتصور متطور للعالم بحله كوزما في شكل (١٢) .

وبعد فلا مجال للشك في أن مثل هذه الرسومات التخطيطية قد صاحبت المخطوط منذ كتبه كوزما إذ أنه من العسير أن نتصور أن هذه النظريات شأنها شأن الرياضيات وأعمال المساحة كانت تسجل كتابة دون مصاحبة

(١) راجع :

Morey, C. R., *Early Christian Art*; (Princeton, 1953, pp. 79 ff.

Λογος Β', ἐν ᾧ ἐστὶ τῆς σχήτης ἢ διαγραφῆ καὶ τῶν (٢)
προφητῶν καὶ ἀποστολῶν ἢ συμφωνία.

الرسم التخطيطي لما . ومثل هذه الرسومات كان معروفاً في الإسكندرية إذ تمتلك المكتبة الأهلية بمدينة فينا ملفاً بردياً يبلغ طوله مترين ونصف المتر من القرن الأول ق.م رسمت فيه أشكال تخطيطية دون استخدام المسطرة (١).

كان من الطبيعي ، وكوزما يتحدث عن شكل الكون أن يتناول الشمس وعظمتها وقد خصها بمقالين (٢) لم يأت فيهما مجيد بل نقل ما سبق أن دعا إليه علماء الإسكندرية مثل هيبارخوس وبطلميوس الجغرافيين مناهضين فكرة اريستارخوس التي تقول أن الأرض والكواكب تلور حول الشمس ، لأن الظواهر المرئية لا تؤيد ذلك (٣) ومن أمثله المصورة على عظمة الشمس ظهورها في وقت واحد في أماكن متباعدة وقد سجل ذلك في صورة تخطيطية (شكل ١٣) تمثل الشمس وكأنها عملة ذهبية تتوسطها صورة للملكة متوجة بتاج كالشمس المشعة وهي ترسل بأشعتها لضيء اكسيوم والحبشة ومروى وأسوان والإسكندرية وروودس وبلاد اليونان في وقت واحد

وفي معرض حديثه عن كسوف الشمس لا ينسى كوزما الكتب المقدسة فيورد قصة الملك حزقيا عندما دعا الله أن يوَجَل ميتة ليعيش فترة أخرى واطاف الله إلى حياته خمس عشرة سنة (سفر أشعيا ٣٨) وكانت علامة لهذا أن «رجعت الشمس عشر درجات في اللوجات التي نزلتها» وتمثل الصورة المرافقة للنص (شكل ١٤) الشمس على هيئة ملكة متوجة ، كما في الصورة السابقة متراجعة عشر درجات إلى الورا فتحجب أشعتها عن الأرض التي مثلت مستديرة مناهضة بذلك ما يدعو إليه كوزما .

Pap. Vindob. gr. 19996; K. Weitzmann, *Ancient Book Illumination*, p. 5, fig. 1.

(٢) المقالات السادسة والثامنة من كتاب كوزما

Λογος Υ' : συνημμένως περί μεγεθους ἡλίου .

Λογος Η' : εἰς τὴν ᾠδὴν Εἴλεκτον, καὶ ملحق حول عظمة الشمس
في صلوات حزقيا وتراجيح الشمس

εἰς τὸν ἀνυ ποδισμου του ἡλίου.

(٣) ابراهيم نصفي ، تاريخ مصر البطالمة الجزء الرابع ١٩٦٦ ص ٢٢٨

لا شك وقد لاحظنا الدقة الرياضية التي رسمت بها هاتان الصورتان مما تقصر دونه كفاءة كوزما العلمية - أن مثل هذه الصور قد نقلت عن مؤلفين آخرين سبقوا كوزما ، أولعلها أضيفت إلى الكتاب في نسخة لاحقة خصوصاً ونحن نعرف أن المقالات والأبحاث الفلكية كانت توضح بالصور منذ عصر مبكر. ومن أقدم الأمثلة على ذلك ملف بردى (١) من القرن الثاني ق. م. يحتوي على تعليمات مدرسية خاصة بكسوف الشمس وكسوف القمر والكواكب ومسح لحركة السماء المليئة بالنجوم كما ذكرها يودوكوس (٢) في القرن الرابع قبل الميلاد. ولقد ملئت معظم أعمدة الملف وهي ثلاثة وعشرين عموداً - برسومات للأبراج والكواكب من بينها رسم بسيط للكون مقسماً إلى نصفى كرة والثاني عشر جزءاً تمثل الأبراج. كذلك رسم الكوكب الصياد وقد صور بشكله المصرى الذى يمثله أوزيريس وقد مثلت الشمس بالجعران المصرى ، وفي هذا ما يؤيد وجود التأثير المصرى على مثل هذه الأبحاث العلمية (٣).

وقد خصص كوزما معتمداً على مثل المصادر السابقة كتابين آخرين لتفصيل مجالات السماء وتمركات النجوم والأبراج (٤) وضحت بثلاث صور تمثل أولها علامات الأبراج (شكل ١٥) بينما تمثل الثانية الأرض والشمس وأشهر السنة (شكل ١٦) أما الثالثة فإنها تمثل التوصل والأبراج (شكل ١٧).

من أهم الموضوعات التي وردت في مخطوطنا هو ما تناوله كوزما في مقاله الحادية عشرة (٥) عن حيوانات الهند وجزيرة تايروبان أو سيلان

(١) Paris, Louvre, Pap. no. 1; Weitzmann, *Roll and Codex*, fig. 37.

(٢) انظر أبراهيم نصسى الترجيح السابق من ٢٣٦

(٣) K. Weitzmann, *Ancient Book Illumination*, P 6.

(٤) *Λογος Ζ'* : περι διαμονης ουρανων. حول مجالات السماء.

(٤) *Λογος Θ'* : περι δρομου αστρων. حول مجالات النجوم.

(٥) *Λογος Γ'Α'* : καταγραφη περι ο ζωων Ινδικων, και πηρι της Ταπροβαντης νησου.

متضمناً معلومات غاية في الأهمية من الناحية الاقتصادية والدينية وأحوال
المعيشة لسكان تلك البلاد. هذا الفصل من الكتاب لم يخصه من الصور السبع
والخمسين غير خمس صور مثلت فيها مجموعة قليلة من الطيور كالطاووس
والحيوانات البرية مثل الأسد والثعلب والوعل والضبع والغزال والحصان
وحيوانات البحر مثل فرس النهر وكلب البحر والدرفيل والبرسة ومن
الأشجار شجرة الفلفل وأشجار النخيل الهندي وغيرها .

مثل هذه الصور لا شك أنها هي لأخرى دخيلة على المخطوط وقد
استعيرت من كتب أخرى أكثر تخصصاً وذلك بغية تمييق كتاب كورزما
وتجميله بالصور. مثل هذه الكتب التي تناول موضوعات الحيوان والنبات
والأعشاب الطيبة وأعمال الأرض والصيد البري والبحري كانت كلها
واسعة الانتشار في العالم القديم ولا سيما في الكتب المعروفة بكتب الطب
والتي تناول العقاقير النباتية والحيوانية مثل كتاب ديوسقوريدس من القرن
الأول الميلادي (١) . ومن السهل العثور على مثل هذه الصور التقليدية
التي وردت في مخطوطنا في مخطوطات أخرى بما في ذلك صورة الغزالة التي
تحك فيها محافرها (شكل ١٨) وصورة الصياد (٢) الذي يصب سهمه ليصطاد
ثعلباً *μύσχος* (شكل ١٩) وكذلك ذلك المنظر الواقعي الذي يمثل أسداً
يئتم حصاناً (شكل ٢٠) وصورة الراعي الذي يقف بالسكين أمام النخلة
(شكل ٢١ ، ٢٢) .

ويتناول كورزما في كتابه العاشر الحديث عن الأماكن المقدسة أو
أماكن الآباء ، كما يسميها هو (٣) وهو يقصد تلك الأماكن التي تبنى الله
فيها للأنبياء والرسل وكان من الطبيعي أن يبدأ بحجة عدن والصورة

Dioscurides : *περὶ ὄλης ἰατρικῆς*.

(١)

K. Weitzmann, *Ancient Book Illumination*, pp. 11 ff

رابع

(٢) أنظر

Kurt Weitzmann, *Greek Mythology in Byzantine Art*, figs. 128, 131

Λογος Γ' : χρησεις πατέρων.

(٣)

التي اختارها الفنان لتوضيح هذا المكان استمدت موضوعها من سفر التكوين (الأصحاح ٢ : ٨ وما بعدها) حيث يذكر «وغرس الرب الاله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله وانبت من الأرض كل شجرة شبيهة وجيدة للأكل وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر ..» وفي صورتنا رقم (٢٣) نرى آدم وحواء عاريتين مختبئين وراء شجرة تتوسط بعض الشجيرات بينما الحية ملتفة حول الشجرة حتى تقترب من اذن حواء كما لو كانت تهم باغرائها ، وهذه الصورة ليست أصيلة في مكانها هذا ، ولا شك أنها متعارة من كتاب خاص بالحيوانات الطيبة ومنها الثعالب على نحو ما نجد مثلاً في كتاب لديوسفوريديس (١) .

عرف آدم حواء أمراته فحملت منه ، وولدت قابيل ثم عادت فولدت أخاه هايليل وكان هايليل راعياً للغنم (سفر التكوين : ٤) وتوضيحاً لهذا المكان أورد الفنان صورة رقم (٢٤) تمثل هايليل واقفاً وقفة الرعاة التقليدية مرتكزاً على عصاه ومستريحاً على قدمه اليسرى وأمامه الماعز والأغنام متحركة غير جامدة وكذلك لم ينس الفنان تسجيل كلب الراعي وهو الآخر من المناظر التقليدية المألوفة منذ العصر الميكني (٢) .

عل أن أهم الأماكن في هذا الصدد والتي نالت أكبر قسط من العناية من حيث عدد الصور كانت بطبيعة الحال ميناء وجبل الرب حوريب حيث توالت عدة أحداث تجلّى الله فيها لموسى وهو في طريق هروبه من مصر على رأس بني اسرائيل (٣) . أول هذه الأحداث هو ما جاء في سفر الخروج (٣ : ١ وما بعدها) حيث يروى أن «موسى بينما كان يرعى غنم حبه بثرون

(١) Cologne, Dembible cod. 83 11 Fol. 156 v; see Weitzmann, *op. cit.*, fig. 30.

(٢) أنظر

Kurt Weitzmann, *Greek Mythology in Byzantine Art*, figs, 132,133

(٣) لتحقيق الاماكن الواردة في التوراة أنظر : أ . مومل ، شمال البحر المتوسط د .

عبد المحسن الحسيني ، الاسكندرية ، ١٩٥٢ ص ١٠١ .

كاهن مدين ، ساقها ذات مرة فيما وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهيب نار وسط عليقة فنظر وإذا العليقة تنوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة فلما رأى الرب أنه مال ينظره ، ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى لا تقرب إلى هنا انزع حذاءك من رجلك لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة ولأول وهلة يخيل إلى الناظر أن الصورة رقم (٢٥) تمثل عدة فصول من القصة السابقة فهنا نرى موسى في لباس الرعاة ، ولكن تعلوه هالة الأنبياء ، وفي يده العصا يرعى الأغنام من حوله ، والكلب رابض بحرسها وفي أعلى الصورة مثل السماء ويد الله ممتدة منها مشيرة إلى موسى وفي وسط الصورة رسم الحذاءان . ومرة أخرى نجد موسى كما لو كان يصعد الجبل ليتسلم الرصايبا من يد الله الممتدة من قوس السماء ومن تحنها العليقة المحترقة .

لا شك أن الصورة بهذا الشكل تجمع بين قصتين الأولى هي بداية لرحلة خروج بني اسرائيل من مصر والثانية تكاد تأتي في نهاية الرحلة ومن ثم فإن صورتنا لا تشير إلى جزء محدد من نص التوراة وبالتالي من نص كوزما خاصة وأن لدينا أربع صور أخرى تصور كل منها مجموعة من الأحداث الواردة في قصة خروج بني اسرائيل من مصر (١) . ففي الصورة الأولى شكل (رقم ٢٦) تسجيل لنهاية الرحلة من رعيس إلى سكوت وكان الرب يسير أمامهم نهراً في عمود سحب *Nephelai* ليهديهم إلى الطريق ليلا في عمود نار *στύλοσπορος* ليضيء لهم ومن ثم يواصلون السير ليلا ونهاراً .. ولما اقترب فرعون ومد موسى يده على البحر بعصاه فهبت ريح شرقية جعلت الماء يابساً وانشق الماء ... ثم ارتحلوا من ايليم (شكل رقم ٢٧) حيث تجدها مثلة بأسوار مدينة ذات أبراج واتوا إلى برية سين التي بين ايليم وسيناء وتدمر بنو اسرائيل على موسى قائلين ليتنا نبد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قنود اللحم نأكل خبزاً للشبع ..

(١) سفر الخروج الاصحاح ١٢ وما بعدها .

تكان في المساء أن السوى (شكل ٢٧) صعدت وغطت المحلة وفي الصباح (شكل رقم ٢٨) نرى الشمس H^{α} مشخصة وإذا على وجه البرية شيء مثل قشور دقيق كالجليد على ارض دعا بنو اسرائيل اسمه منا . وقال موسى لمارون خذ قطعاً (شكل ٢٨) واحداً واجعل فيه منا وضعه أمام الرب لحفظ ثم ارتحل كل جماعة بني اسرائيل من برية سين وزلوا في وفيديم (شكل ٢٨) مئة بيوبة معبد (*Paroub*) ولم يكن ماء ليشرب الشعب وتلعر الشعب على موسى وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لثيتنا وأولادنا ومواشيتنا (شكل ٢٧) بالمعش . فقال الرب لموسى مُر قدام الشعب وخذ معك من شيوخ اسرائيل وعصاك التي ضربت بها الهر خذها في يدك وأذهب ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب - لهذا تعتقد أن صورتنا (شكل ٢٥) منقولة عن صورة مجمعة أو ايقونة صنعت خصيصاً لا لتصوير أحداث التوراء مفردة وانما لتجميل كتاب من كتب القراءات الخاصة بالاعياد الكنية . وليس أدنى على هذا من تكرار تسجيل الأحداث فنحن نلاحظ أن الفنان قام مرة أخرى (شكل ٢٩) بتسجيل صورة لموسى وهو يتسلم الألواح ولا شك أنها منقولة من مصدر آخر غير المصدر الذي نقل عنه صورتنا (شكل ٢٥) .

يراصل كوزما - وقد بدأ بكيفية خلق الله للعالم الامتشاف بأقوال الآباء من آدم إلى بولص للتدليل على نظريته . وكثيراً ما اقتضت الإشارة على مجرد ذكر الاسم يصاحبه صورة مجردة للشخص المعنى كما في صورة لآدم وحواء (شكل ٣٠) وهما على الأرض بعد طردهما من الجنة ، وصورة لاصحق (شكل ٣١) بعد أن كبر وليس مسوح الكهنة ، ولكن في معظم الحالات الأخرى نجد أن الصور المرافقة تتضمن عناصر وموضوعات واحداث لا ذكر لها في نص كوزما ولا سبيل إلى الاعتقاد بأنها قد رسمت خصيصاً لتوضيح النص الأصلي الذي اختصره وامتشهد به كوزما .

لتوضيح هذا الرأي نأخذ مثلاً الفصل الخاص بابراهيم حيث الحق الفنان صورة كبيرة (شكل ٣٢) مثل فيها عدة أحداث من قصة ابراهيم

وأصبح فنرى خادمين سائرين مع الحجار ونرى اسحق حاملاً الحطب على كتفيه ثم نرى ابراهيم ، ذلك الشيخ بهم يذبح انه اسحق (١) وكذلك نرى يد الله ممثلة من قوس السماء يخرج منها شعاع بمثابة الصوت الصادر إلى ابراهيم بالايمن الصبي بسوء أخيراً نرى الكباش الذي سوف يفدى به ابراهيم مربوطاً إلى الشجرة - حمة أحداث في صورة تذكارية واحدة جمعت ، بدون شك من صور مفردة منفصلة كانت تمثل الأصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين وبه كل التفاصيل بينما أختصرت القصة في كتاب كوزما على النحو الآتي هالآن تلك الرحلة التي قام بها ابراهيم لمدة ثلاثة أيام حتى وصل إلى المكان الذي أراه الله أباه حتى يقدم ابنه ك محرقة على أحد الجبال كما هو مكتوب ، وكيف انه آراه كبشاً يمكن أن يقدمه محرقة بدلاً من ابنه الذي ولد له من صلبه (٢) وهكذا نرى النص لا يتحدث عن تابعي ابراهيم اللذين يقودان الحجار ، ومع ذلك تتضمنها الصورة .

ومن مشاهد العهد الجديد يخصص كوزما فصلاً لبولص (٢) لا لشيء الا ليرهن على أنه هو مؤلف الرسائل الواردة في الإنجيل وبالرغم من هذا فان المصور يسجل صورة (شكل ٣٣) تروى لنا قصة إعتناق بولص المسيحية (أعمال الرسل ١١٩ وما بعدها) حيث نشاهد ستة أحداث من هذه القصة تكرر فيها ظهور بولص خمس مرات : نراه في أورشليم ، وقد مثلت يار الناظر بيننا دمشق في الناحية الأخرى ، يتقدم بولص إلى رئيس الكهنة ليتسلم الخطابات الخاصة بقتل المسيحين ونراه أيضاً في الطريق وبصحبه اثنان من أتباعه عندما سمع صوت الله ، ثم نراه جانياً على الأرض ونراه مرة أخرى في دمشق يتلمس طريقه ، إذ كان قد ضرب بالعمى ، بمصاحبة

(١) من المعروف كما جاء في القرآن الكريم ان الامر جاء في المنام لابراهيم يذبح ابنه اسحاق
Migne, P.G. 88, col. 240; Weitzmann; *Roll and Codex*, p. 141, (٢)
Fig. 129.

Migne, P.G. 88 col 301 English translation, Mc. Crindle, *op. cit.* (٢)
cit p. 228; K. Weitzmann, *Roll and Codex*, p. 142; Fig. 130.

حتاتيا ، أحد الرسل ، وأخيراً وفي مواجهة الناظر نجده وقد لبس على رأسه
هالة المؤمنين ، وكل ذلك بعيد تماماً عما يرويه النص .

وهكذا نرى أن الفنان الذي كلف بتنسيق المخطوط لم يعتمد تماماً على
النص المختصر بل اعتمد على نص آخر أكثر تفصيلاً لتوضيح كل أحداث
القصة ولا سيّما إلى الشك في أن هذا النص هو ما جاء في سفر «أعمال الرسل»
الواردة في الأنجيل والذي يروى بدقة بالغة (الاصحاح التاسع) كل التفاصيل
والأحداث الواردة في صورتنا - فإذا علمنا أن هذه الصورة فريدة في نوعها
وإذا علمنا أيضاً أنه لم يصلنا أية مخطوطات مصورة «لأعمال الرسل» فتبقى
هذه الصورة وأمثالها في مخطوط كوزما هي الشاهد الوحيد على سبق تصوير
كتاب أعمال الرسل وعلى وجود مخطوط مصور لأعمال الرسل نقل عنه
الفنان الذي قام بتنسيق مخطوطنا. ولذلك فنحن نعتبر صورتنا هذه بمثابة
تعليق على النصوص التي ترد في حواشي الكتب (Scholia) وتمدنا
في كثير من الأحيان بمعلومات عن مؤلفين نقلت أعمالهم .

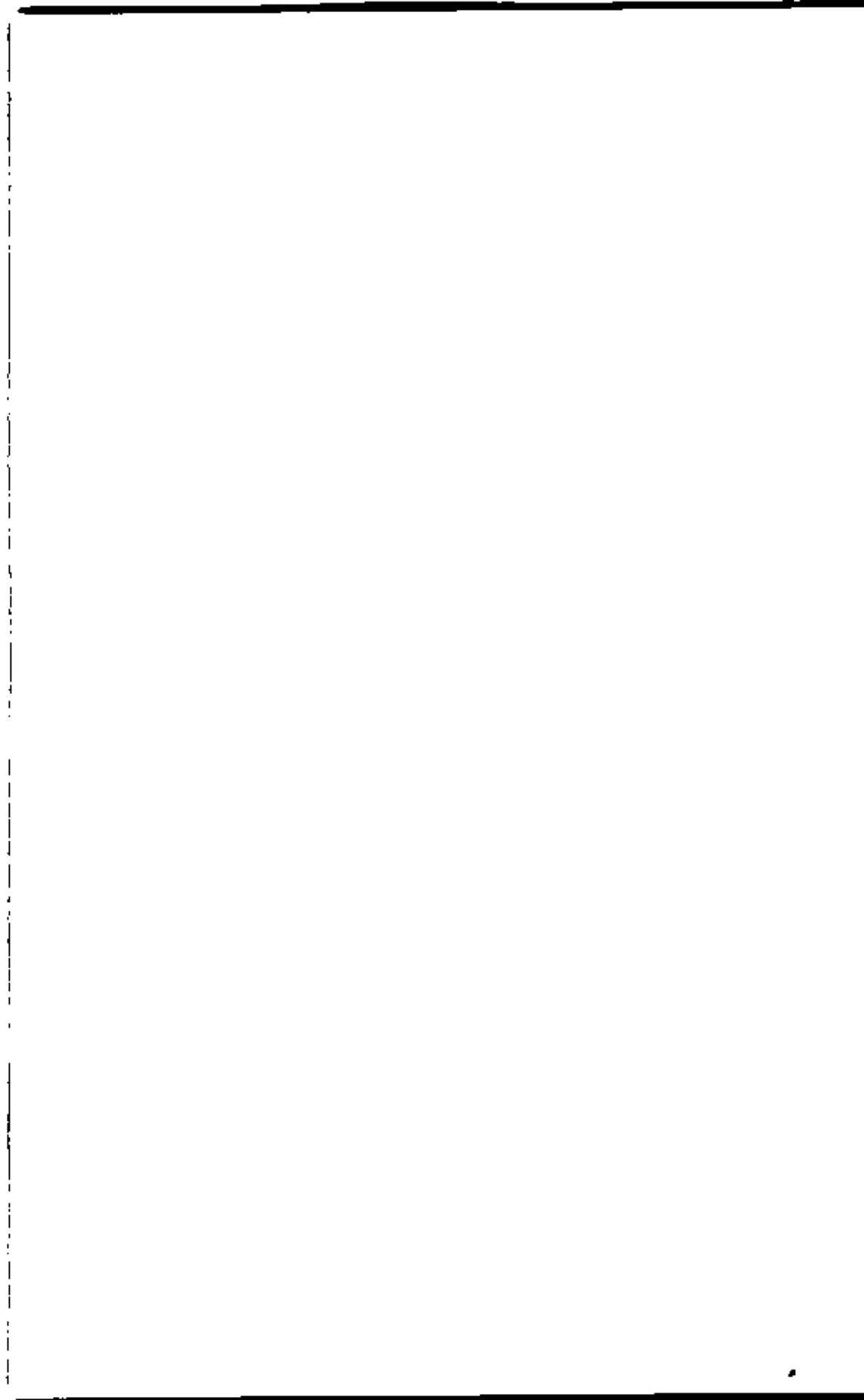
ومن هذا القليل أيضاً الصورة التي وردت في مخطوطنا (شكل ٣٤)
عن انتقال النبي ايليا إلى العالم الآخر ، وكان كوزما قد استشهد بهذا الحادث
على وجود طابقيين للكون طابق علوي هو السماوات وطابق سفلي هو الأرض
بضام إليها عدة أحداث لم ترد إلا في سفر الملوك الأول (الاصحاح ١٧)
مثل جلوس ايليا عند نهر كريت حيث «كانت التريان تأتي إليه بخبز ولحم
صباحاً وخبز ولحم مساء وكان يشرب من النهر» (العدد ٦) وفي ذلك دليل
كاف على أن رسام مخطوط كوزما كانت لديه نسخة مصورة لسفر الملوك
الأول جمع منه صورته .

كذلك لا علم لنا بمخطوطات مصورة لسفر الأنبياء ولكن لدينا في
مخطوط كوزما صورة (شكل ٣٥) تحكي قصة النبي يونان أو يونس وفيها
تري مركبا من الطراز السكندري الكلاسيكي بمخمر عباب البحر المائج
والملاحين في رعب شديد ثم تری يونس يخرج من فم الحوت ثم تراه أخيراً
ملقى على الشاطئ عارياً مستظلاً بفرع شجرة .

يتضح لنا مما سبق اننا بازاء عمل من أعمال القرن السادس الميلادي يدعو فيه الراهب المصري كوزما إلى نظرية علمية استفذ في التدايل على صحتها كل ما توصل اليه عن طريق القراءة والدين والتجارب الشخصية مما لا يدع مجالاً للشك في قدر علمه وثقافته تبعاً لمعايير عصره . ومع هذا فنحن نرى أن القيمة الأثرية للمخطوط ترجع في الدرجة الأولى إلى ما يحتويه من رسومات تخطيطية وصور تباينت موضوعاتها بقدر تباين موضوعات النص . ولقد لاحظنا من تحليل الصور أنها فيما عدا الرسوم التخطيطية الخاصة بشكل الكون وهو جوهر موضوع الكتاب تحتوي على تفاصيل لم ترد في نص كتاب كوزما مما دعانا إلى البحث عن المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها الفنان في تجميع صورهِ . هذه المصادر كانت مؤلفات في علوم الجغرافيا والفلك والطب والحيوان والنبات والتاريخ بالإضافة إلى التوراة والإنجيل وأنى أرجح أنها كلها كانت منمقة بالصور التوضيحية التي لم يتردد الرسام في نقلها في كتاب كوزما متيحاً لنا بذلك فرصة فريدة في التعرف على فن تنسيق الكتب في الإسكندرية في فترة ان لم تسبق منتصف القرن السادس ، وقت تأليف الكتاب ، فهي بلون شك تسبق القرن التاسع أعني وقت نسخ مخطوطنا (سيناء - يوناني - ١١٨٢) أضف إلى هذا أن هذه الصور تحتوي على عناصر عديدة يمكن ارجاعها إلى أصول لم تصلنا من العصر الهليني .

مراجع

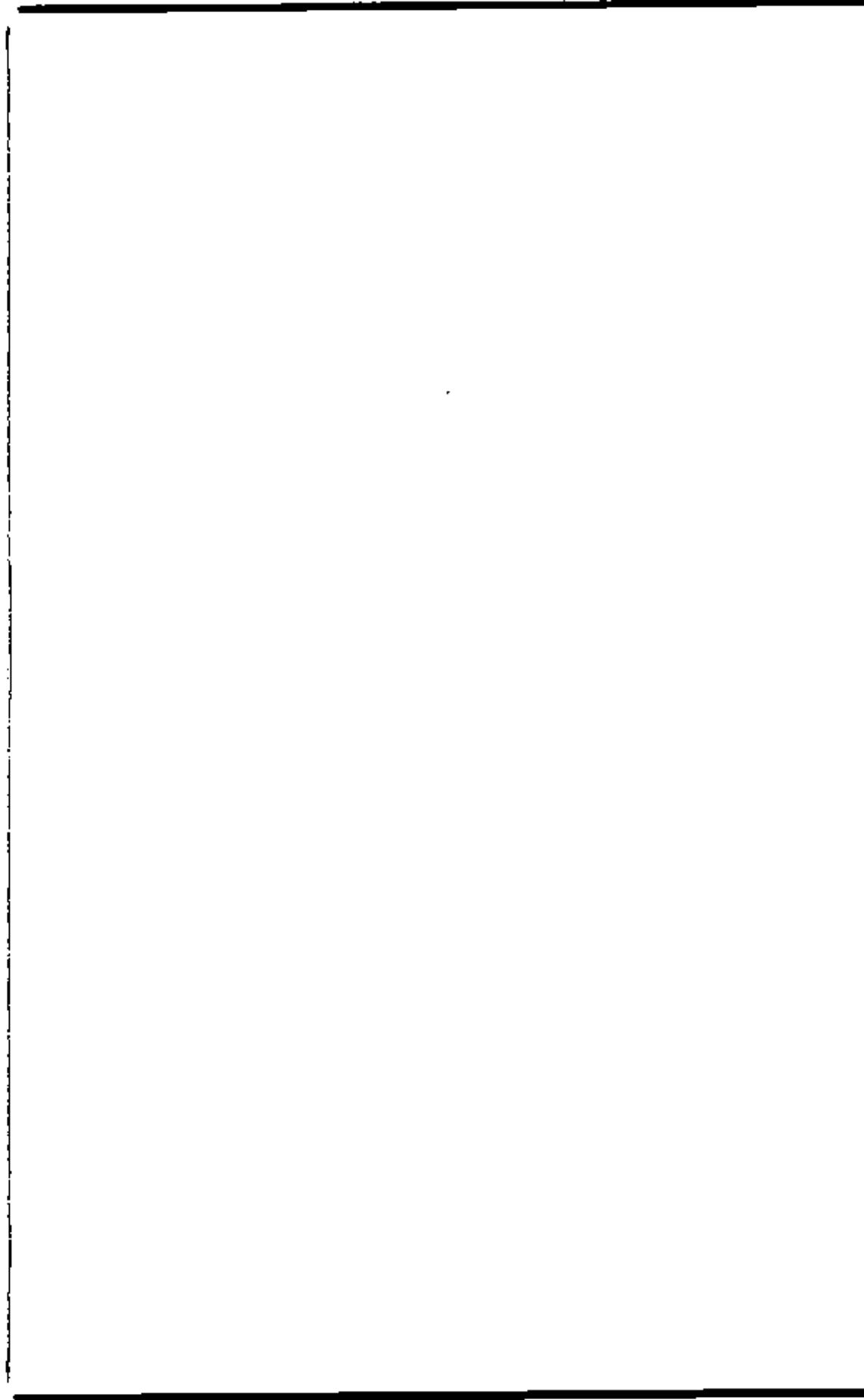
- إبراهيم نصحي تاريخ مصر في عصر البطائنة الجزء الرابع سنة ١٩٦٦
عبد المحسن الحسيني شمال الحجازي ترجمة لكتاب أ. مومل الإسكندرية ١٩٥٢
نعوم شقير تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها . مصر ١٩٠٦
- Morey, C.R. *Early Christian Art*. Princeton. 1953
- Rice, D.T., *Byzantine Art*, Pelican Book. A. 287. 1954.
- Runciman, *Byzantine Civilization*, 1959
- C. Stormajelo, *Miniatures della Topographia Christiana di Cosma Indicepleste*, codice. Vaticane Grec 699. (Millan 1908).
- Vasiliev, A.A; *History of the Byzantine Empire*. Modison. 1958.
- Weitzmann, K., *Illustrations in Roll and codex*. 1947.
Greek Mythology in Byzantine Art, 1951.
Ancient Book Illumination, 1959.
Byzantinische Buchmalerei.
- Smith, *Dictionary of Greek and Roman Biography & Mythology*
- Migne, *Patrologia Graeca*, Lxxxiii; (in Greek and Latin.)
- J.W. McCrindle, *The christian Topography of Cosmas*. London. 1897.
- Anastas, M.V, "The Alexandrian Origin of the *Christian Topography* of Cosmas Indicepleustes. ., *Dombarton Oaks Papers*. 111. 1946.





شكل (1)

العرش البطلمي والبيادة الأثيوبية



Fol. 30 v.

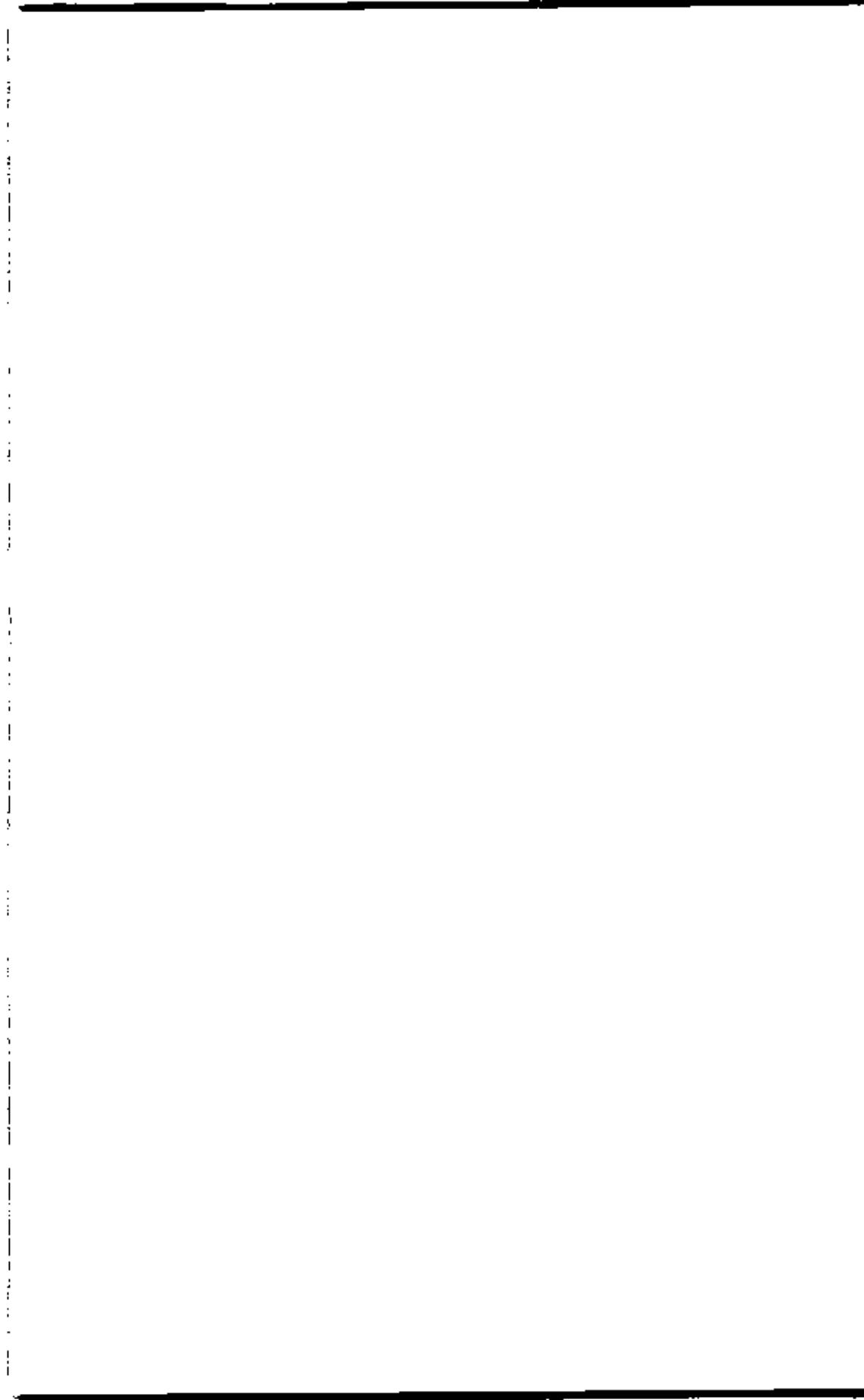


شكل (٢)
ملاك الرب والثان من الملوك

Fol. 31 r



شكل (٣)
أثنان من الملوك



Fol. 33 v.



شكل (٤)

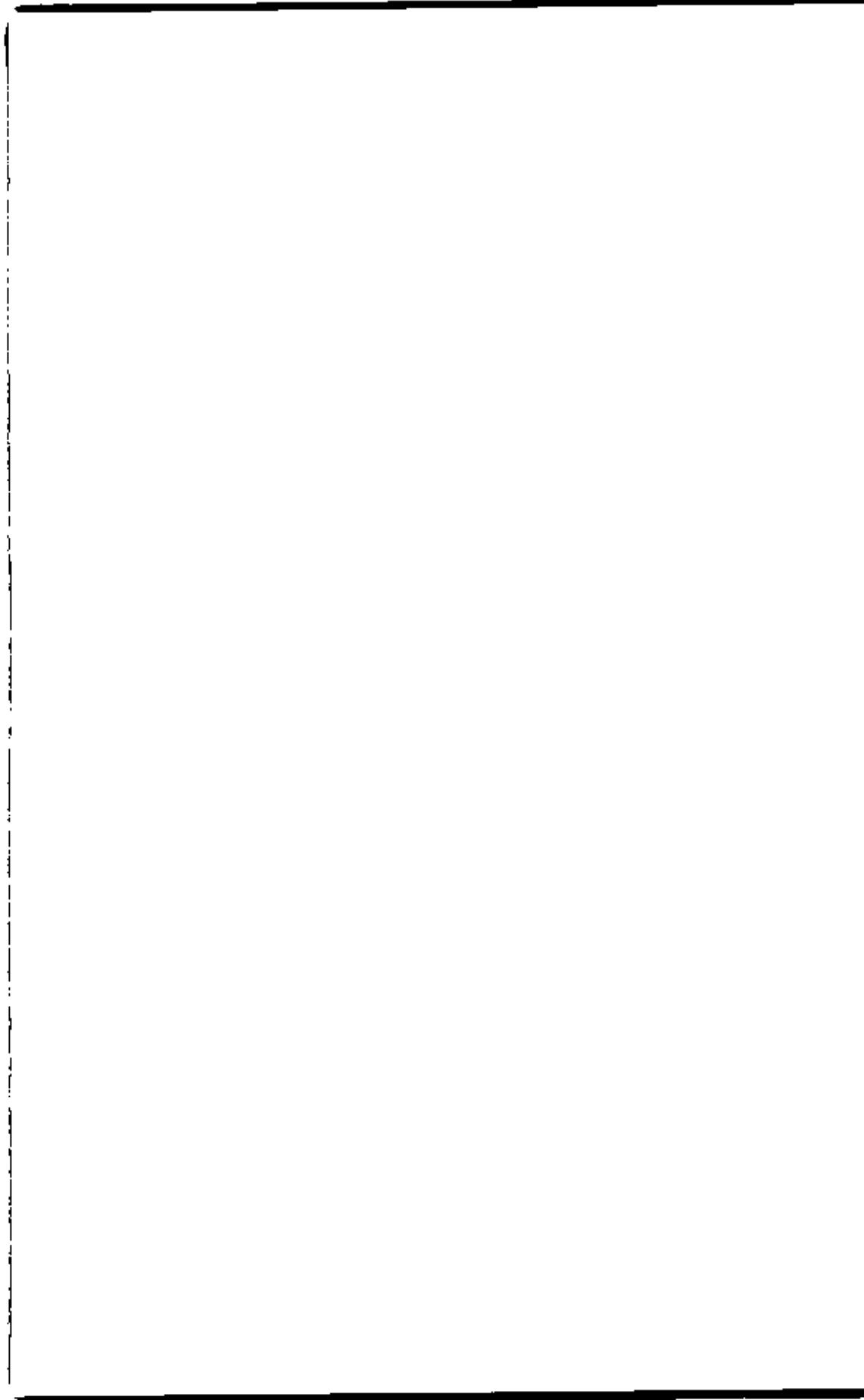
العالم

Fol. 34 r.

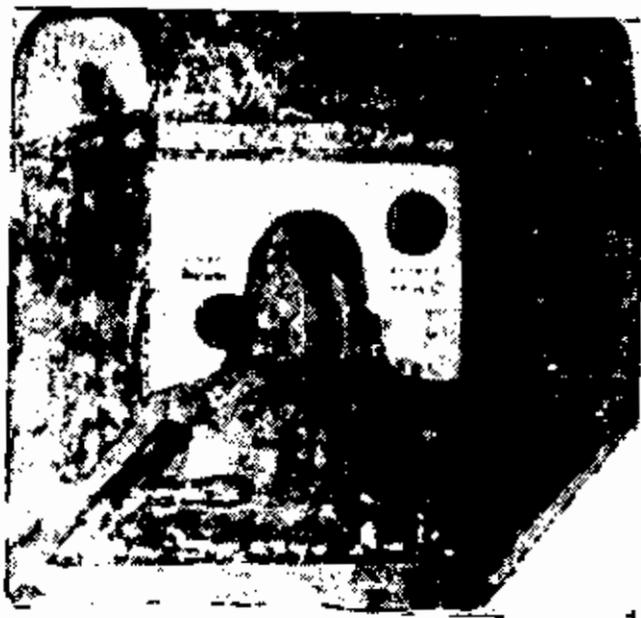


شكل (٥)

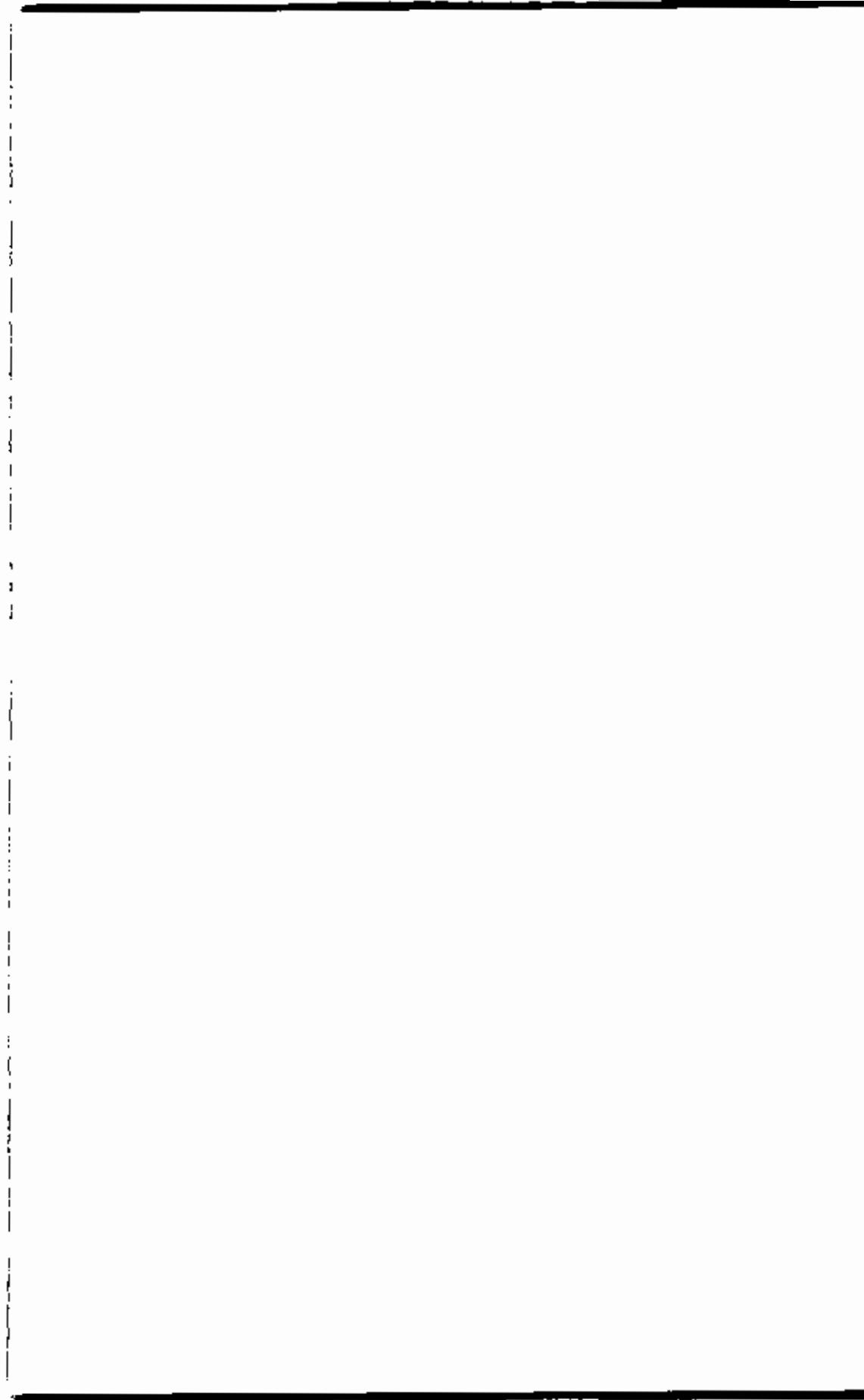
العالم



Fol. 69 r.



شكل (٦)
التكوين



Fol. 82 r.

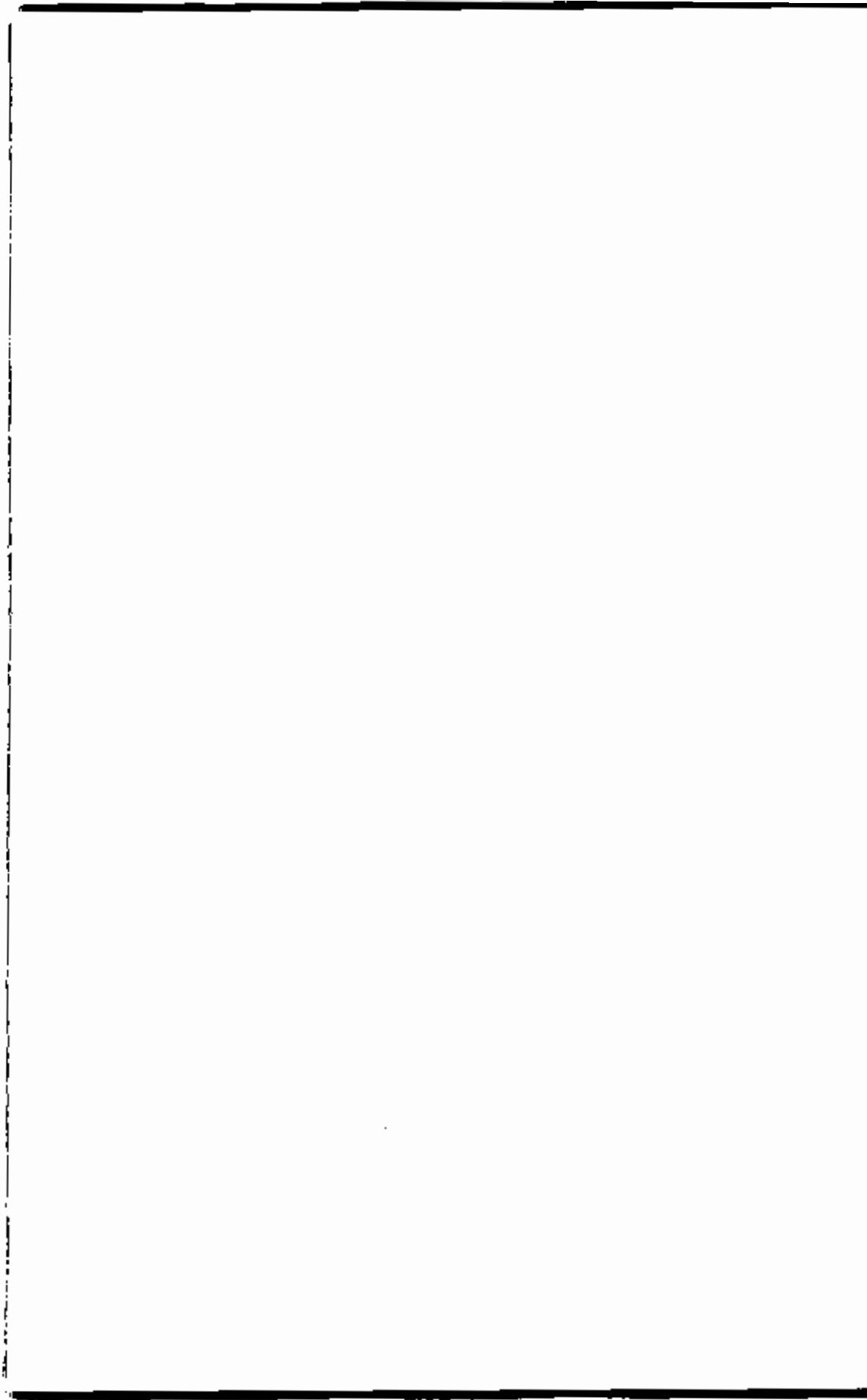


شكل (٧)
تابوت العهد

Fol. 77 v.



شكل (٨)
خيمة الاجتماع

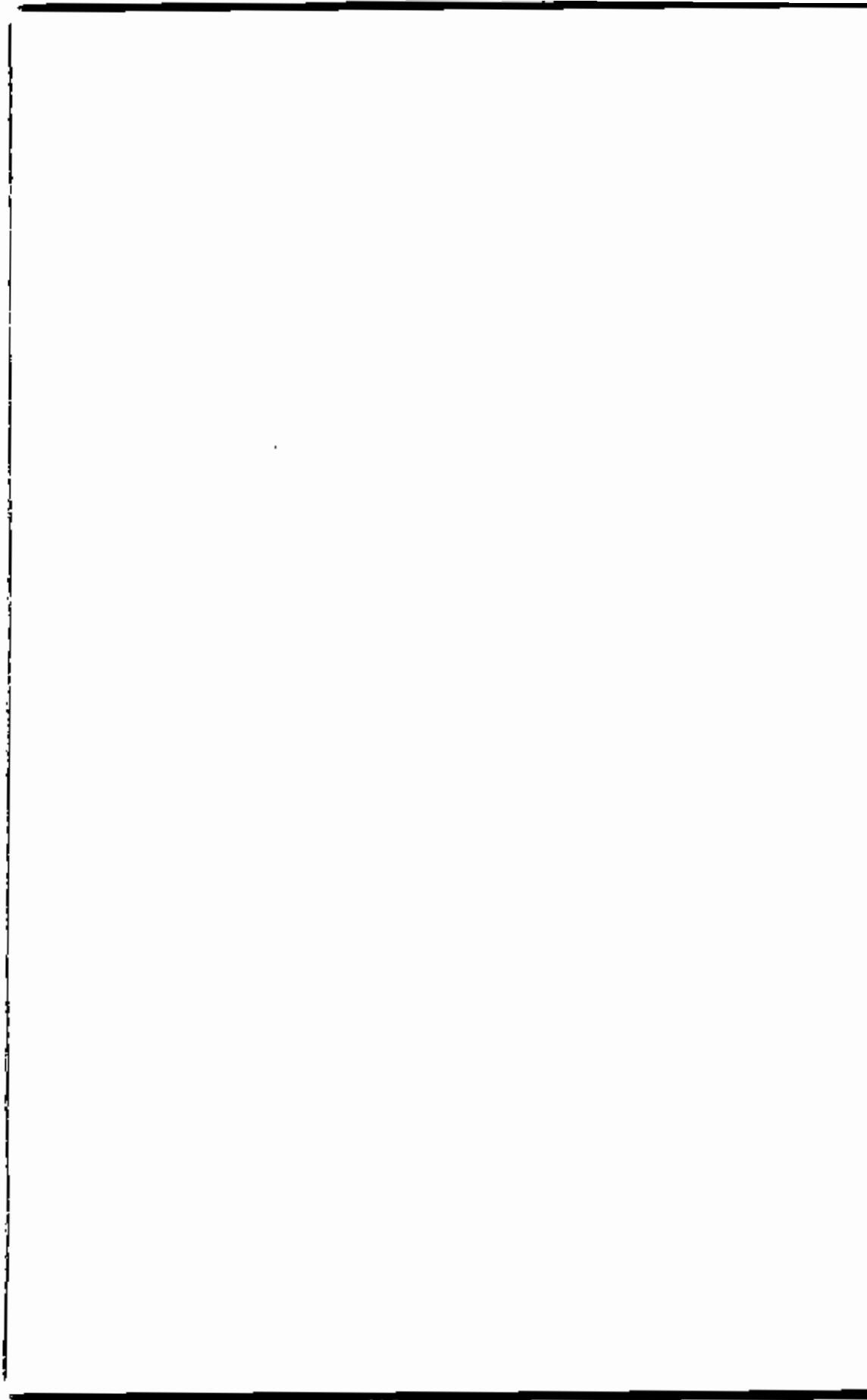


Fol, 81 r.

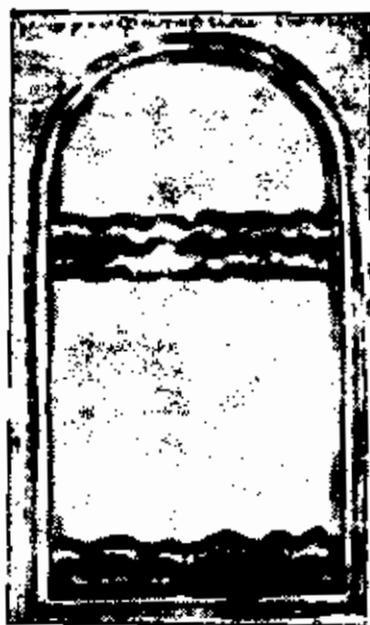


شكل (٩)

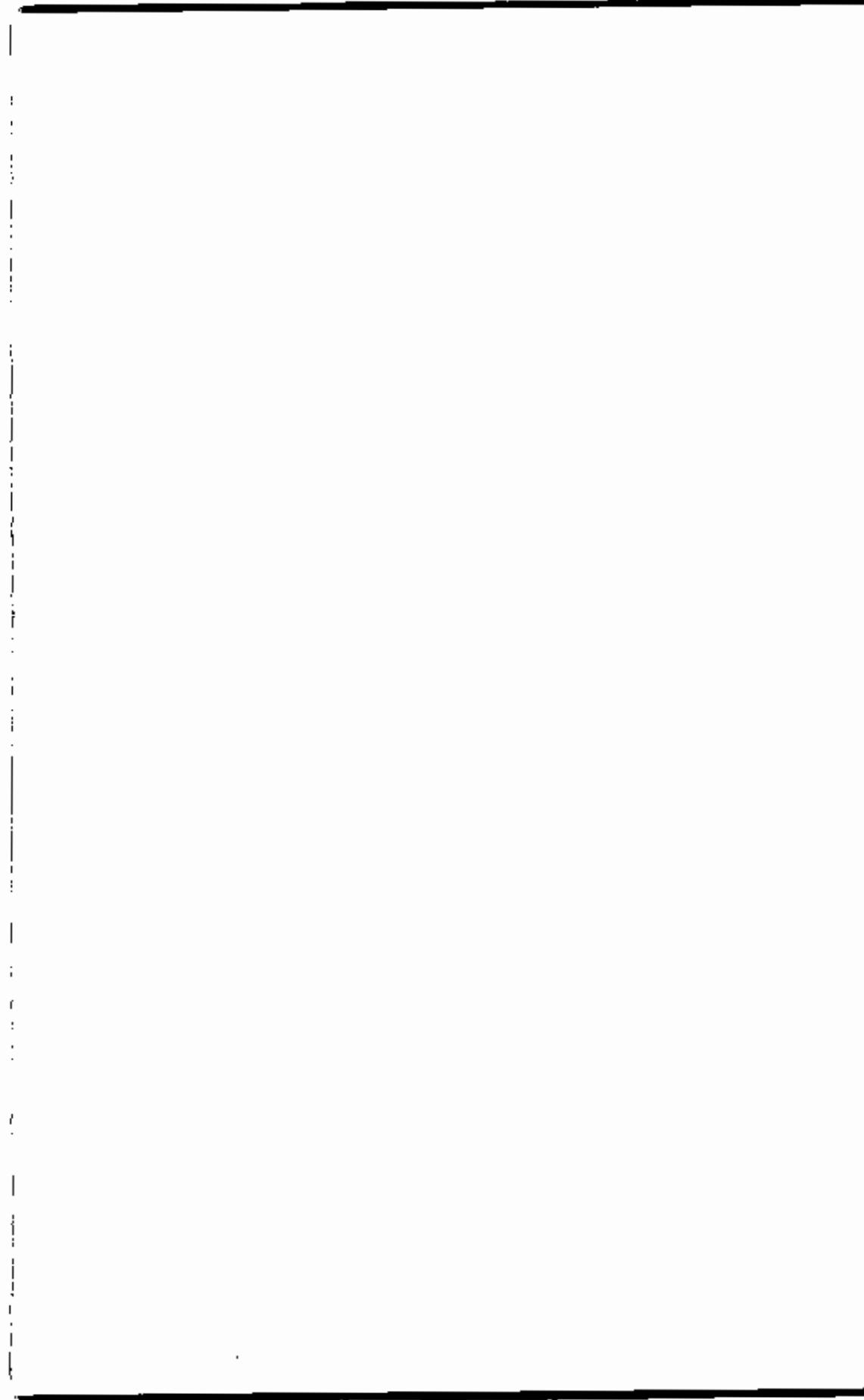
ارشادات بناء المائدة والشمعدان



Fol. 65 v.



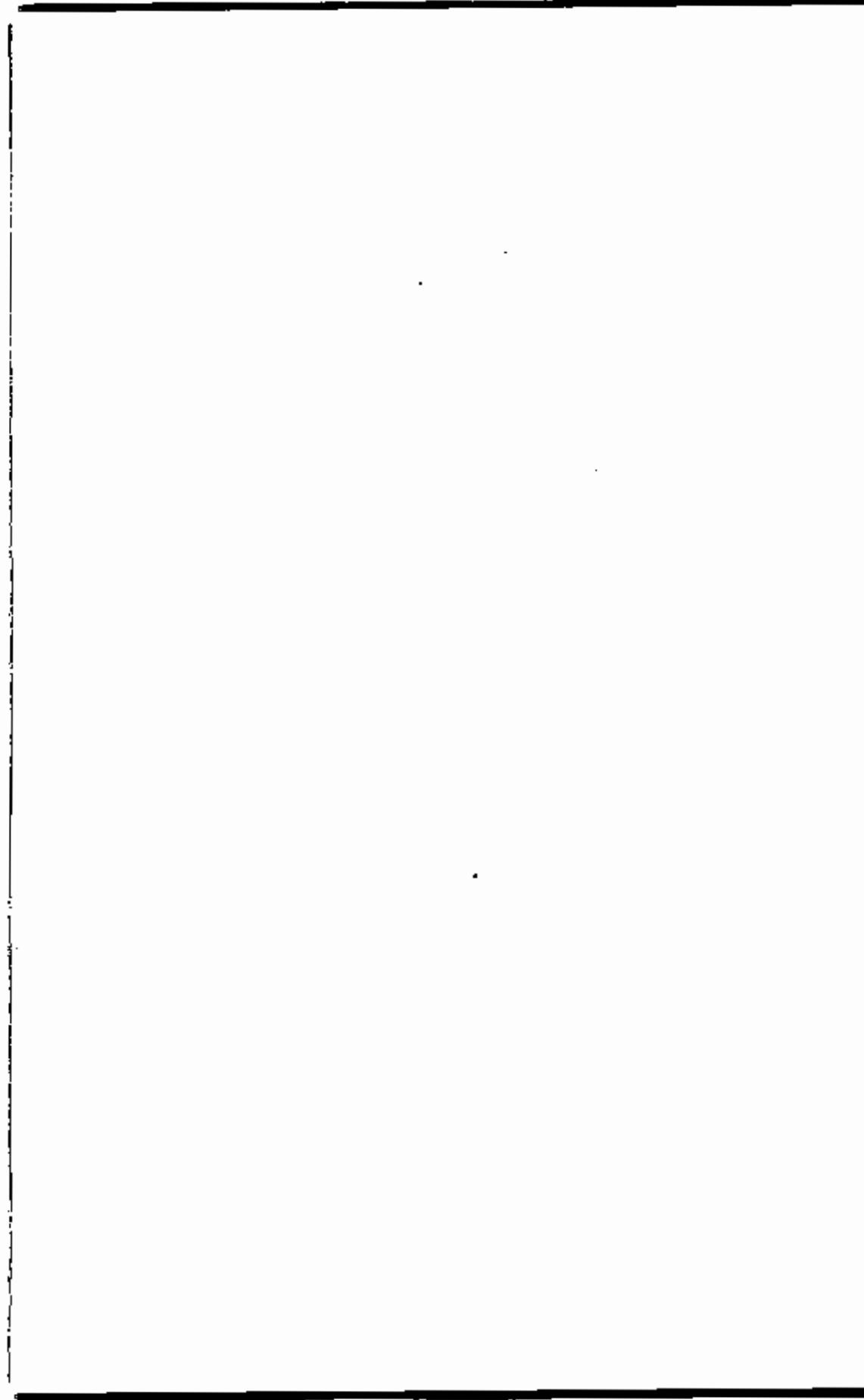
شكل (١٠)
العالم



Fol. 54 v.



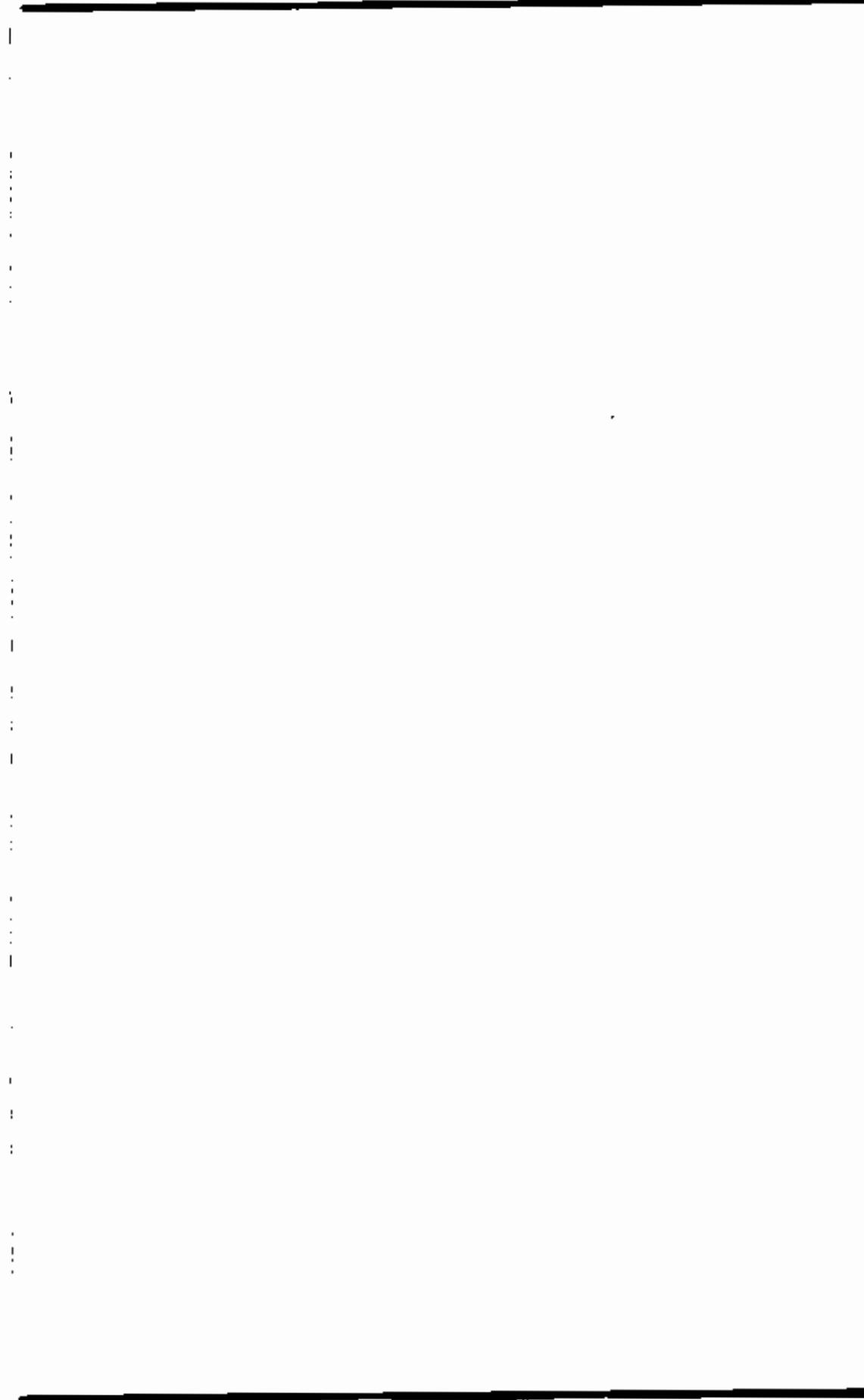
شكل (١١)
الحمامة تعود الى الفلك



Fol. 68 v.



شكل (١٢)
تخطيط الخلية

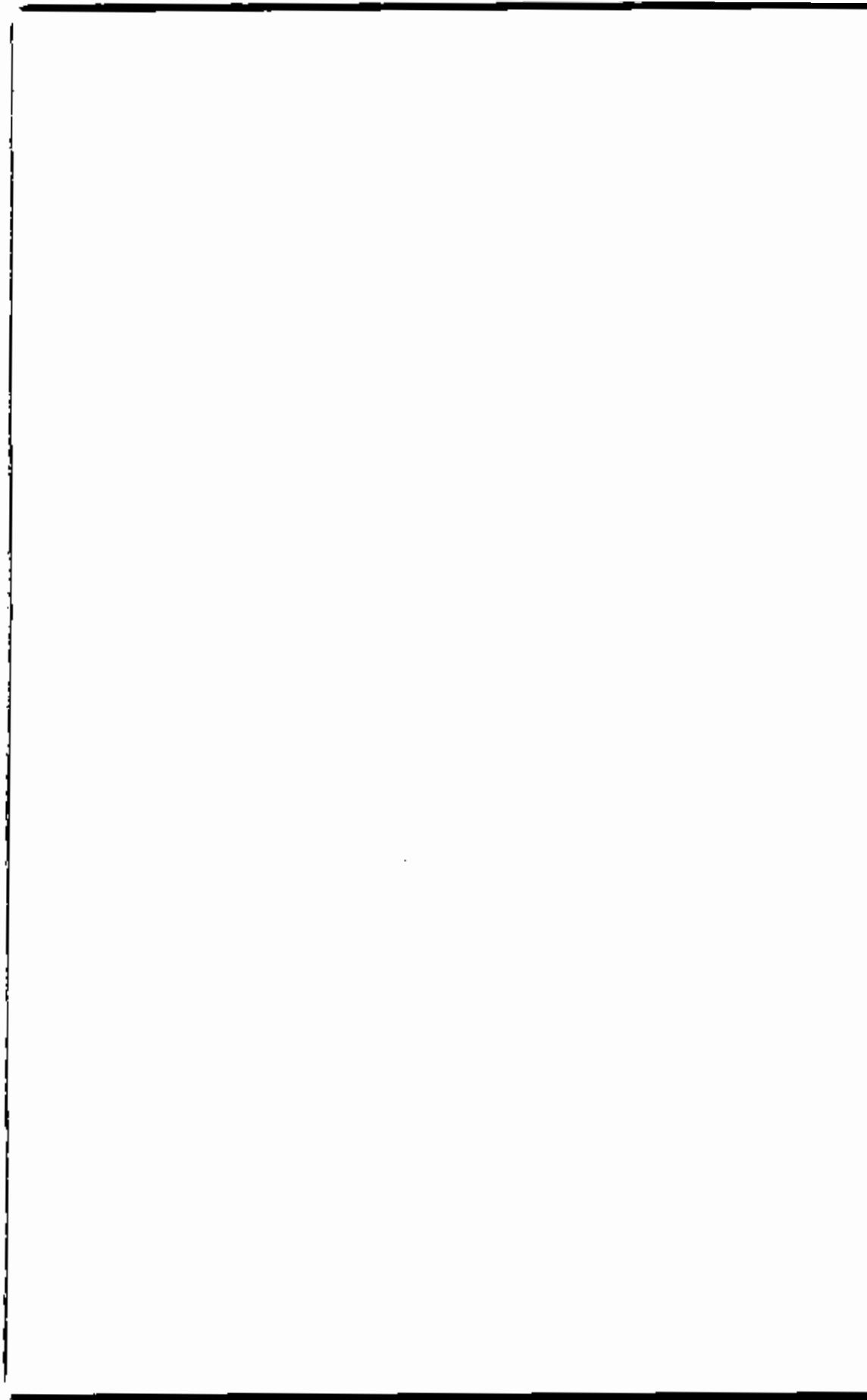




شكل (١٤)
تشخيص الشمس



شكل (١٣)
تشخيص الشمس

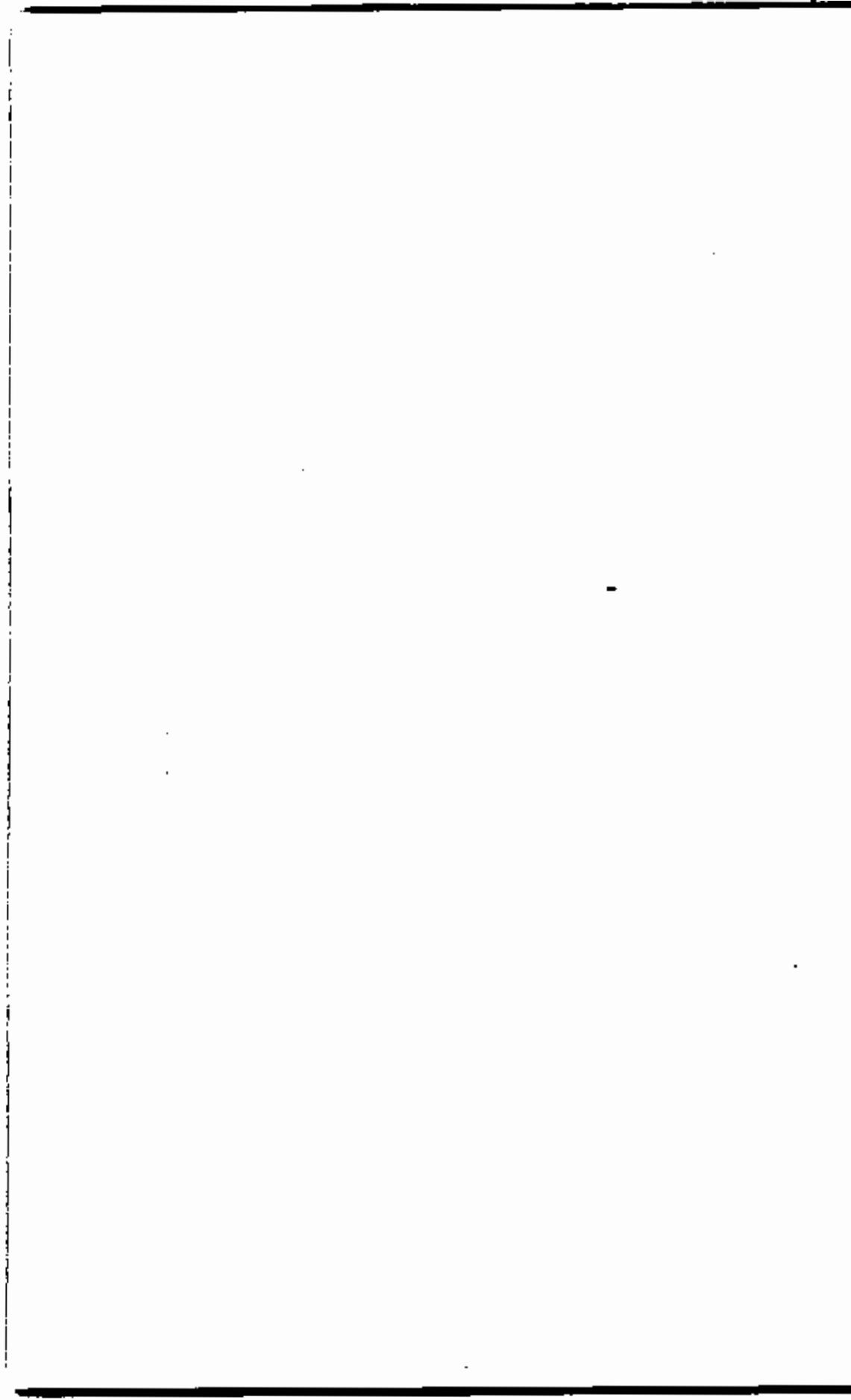


Fol. 180 r.



شكل (١٥)

تخطيط للبروج ، الفصول والاشكال الرمزية



Fol. 202 r.



شکل (۱۹)
غرس و نصید و نوحوش

Fol. 204 r



شکل (۲۰)
أسد یثیم حصان

Fol. 202 v.



شكل (٢١)

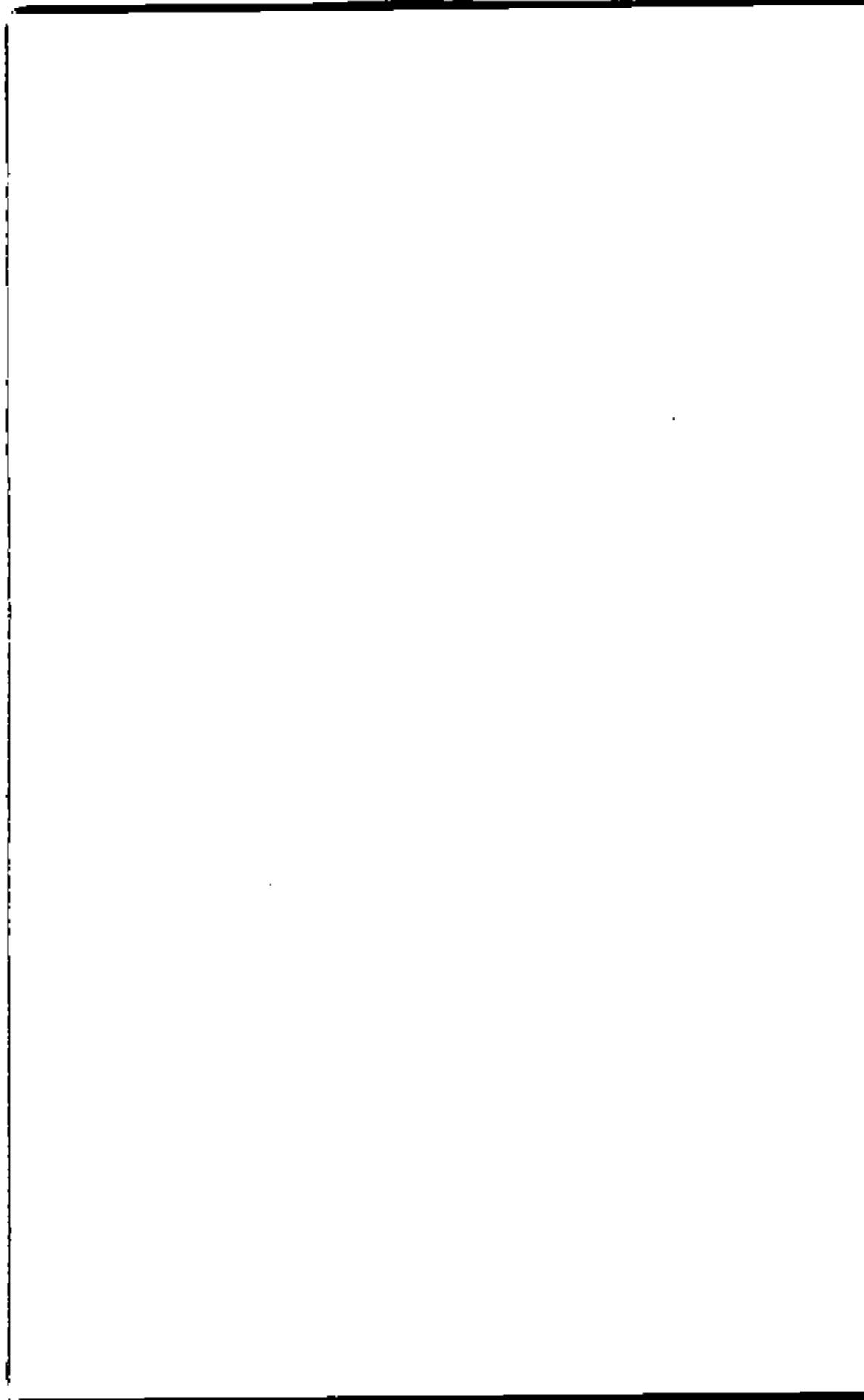
شجرة العفل وحيوانات بحرية

Fol. 203 r.



شكل (٢٢)

رجل ونخلة هندية

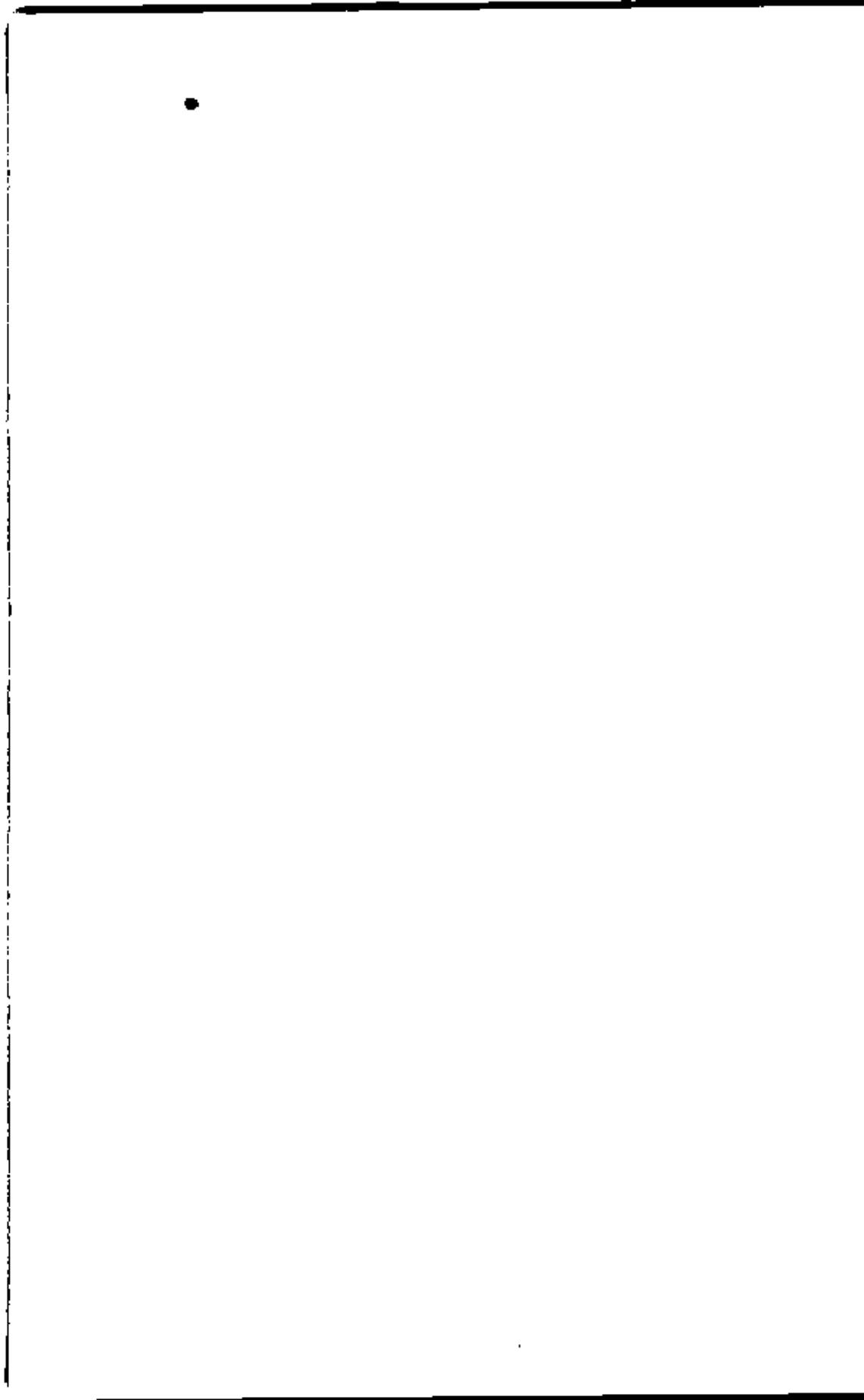


Fol. 59 v.



شكل (٢٣)

آدم وحواء في الجنة مع الجنة

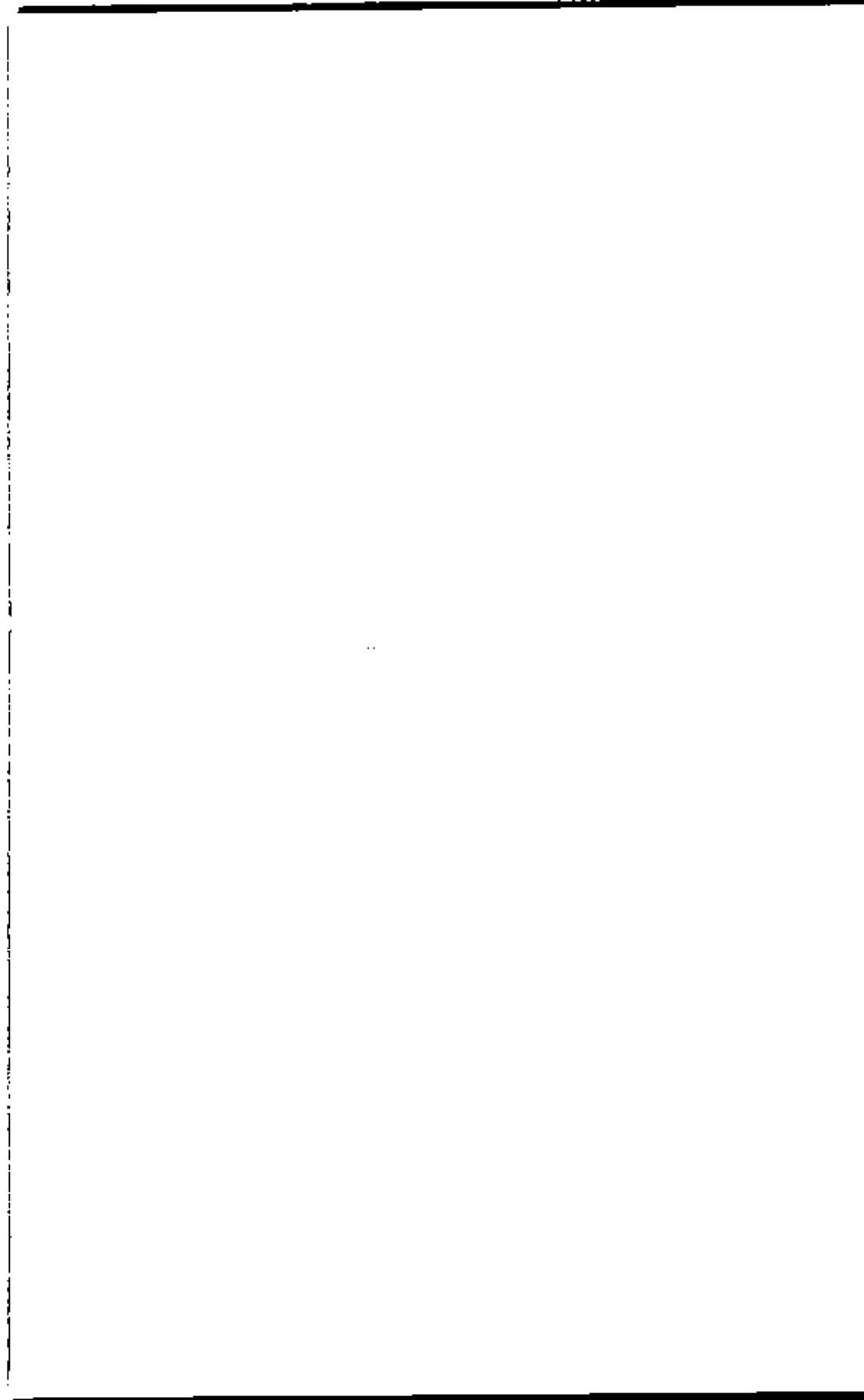


Fol. 91 v.



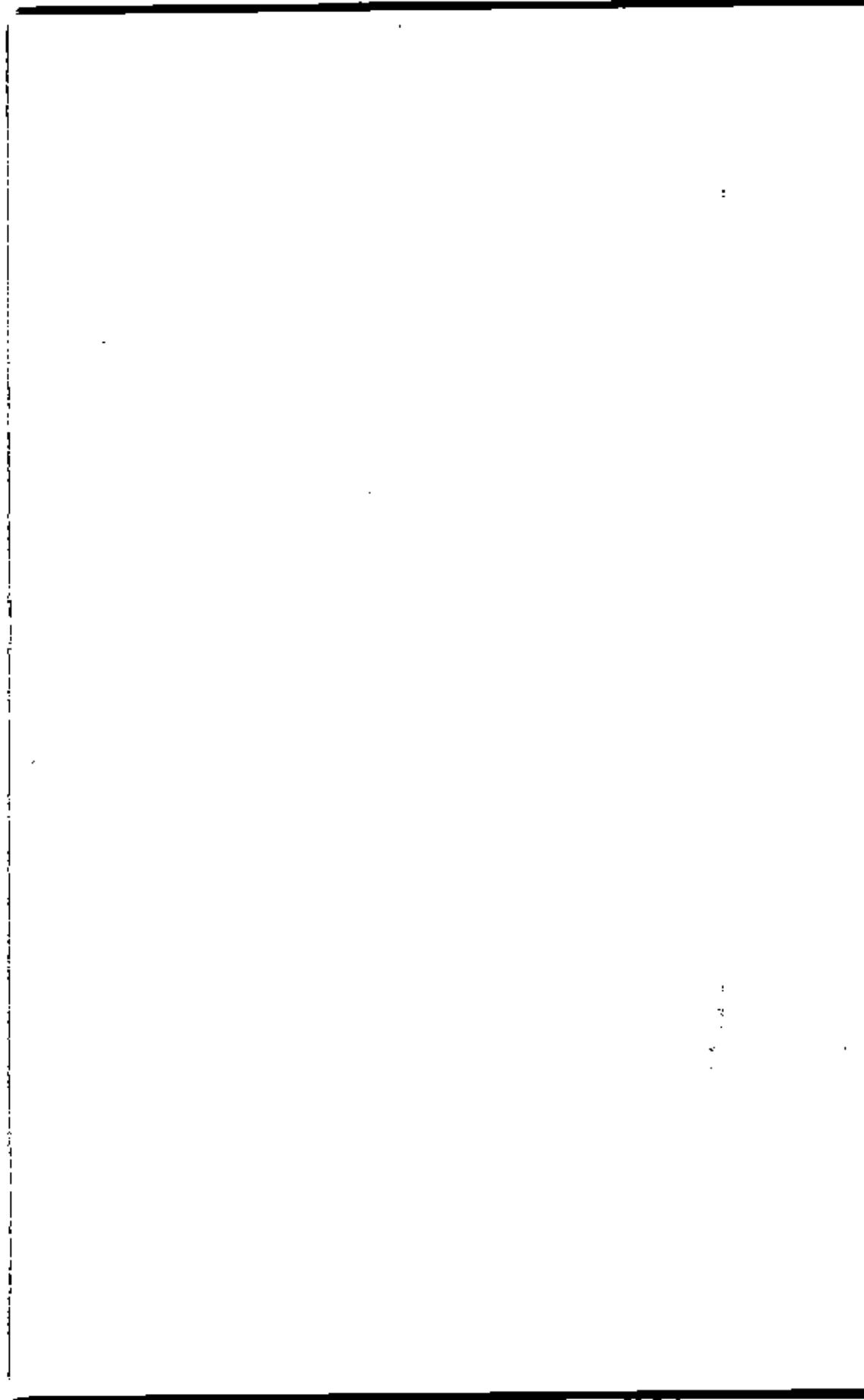
شکل (۲۴)

هابیل و غنمه





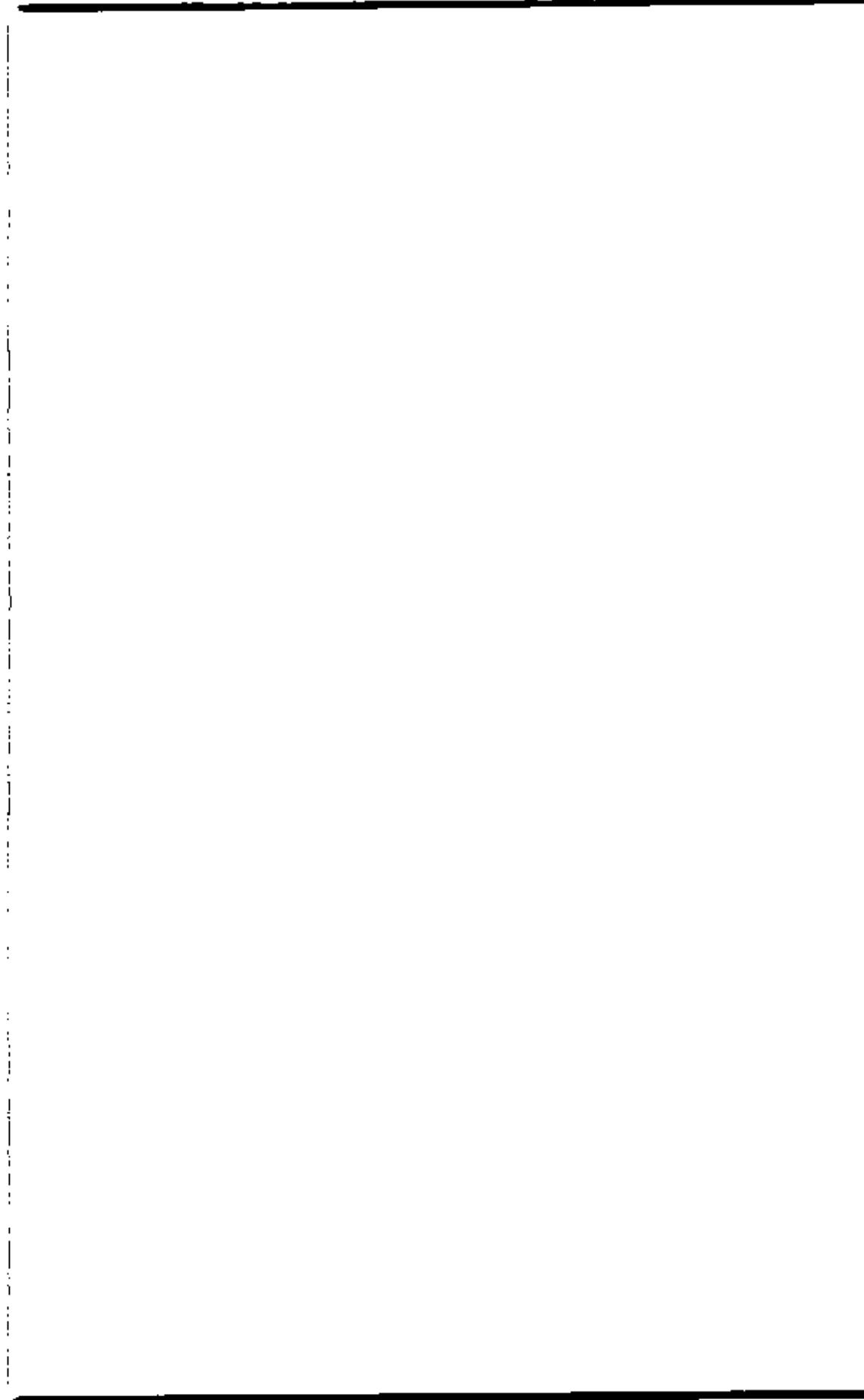
شكل (٢٥)
موسى يتسلم القانون





شكل (٢٦)

معجزة السحابة نهاراً وعمود النار ليلاً



Fol. 74 r.

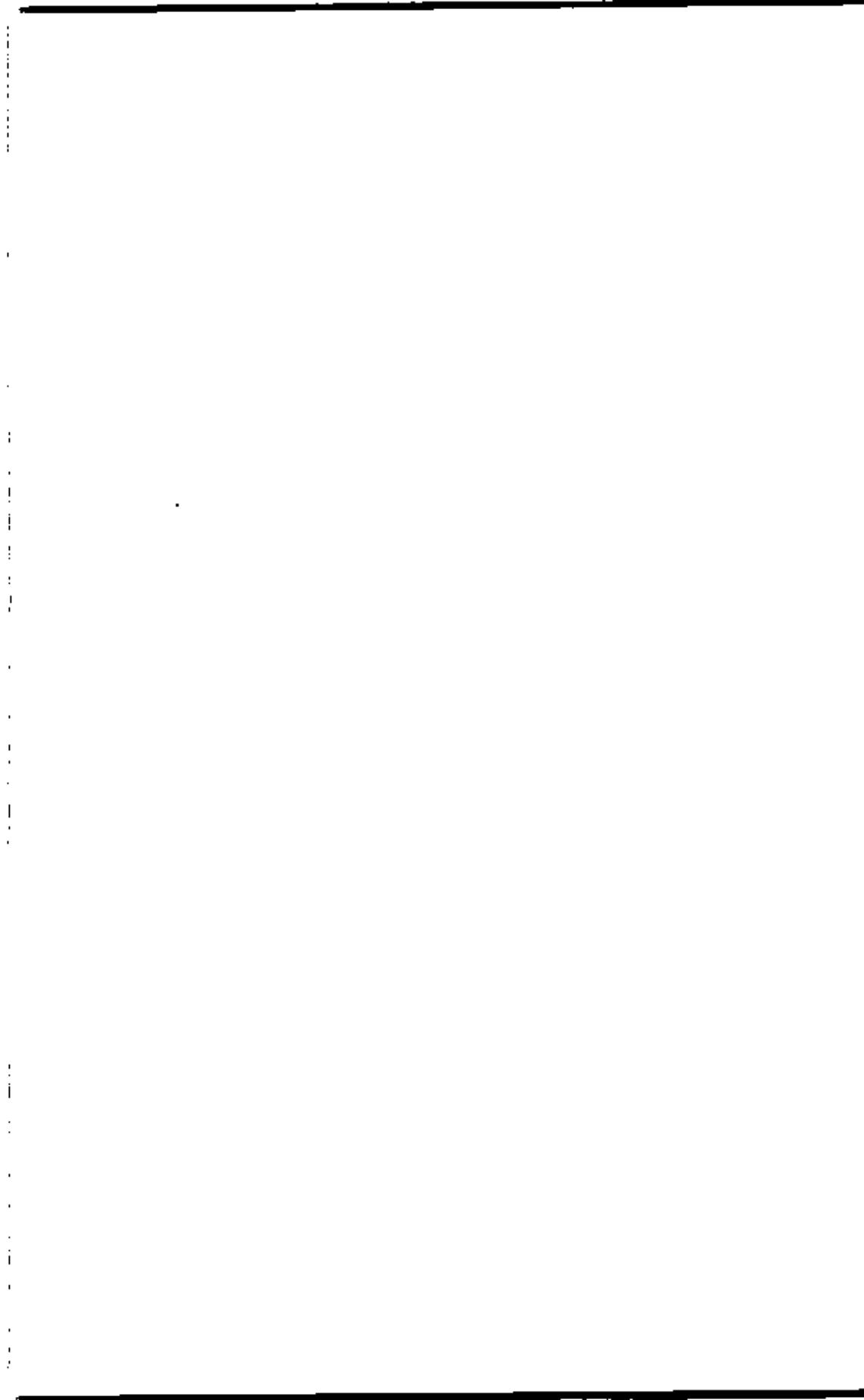


شكل (٢٧)
معجزة اسلوى

Fol 73 v.



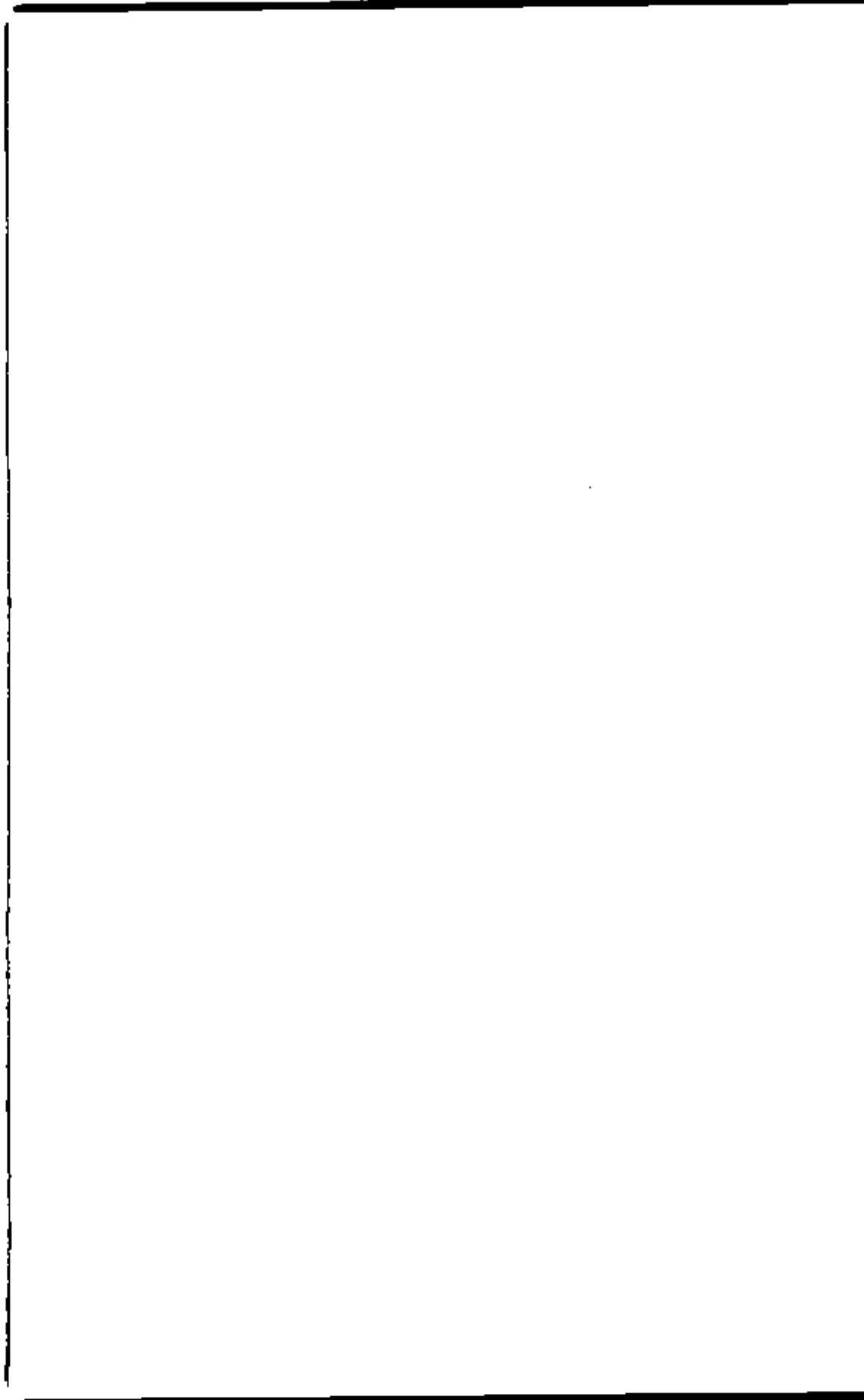
شكل (٢٨)
معجزة المن



Fol. 75 v.



شكل (٢٩)
موسى يتسلم القانون

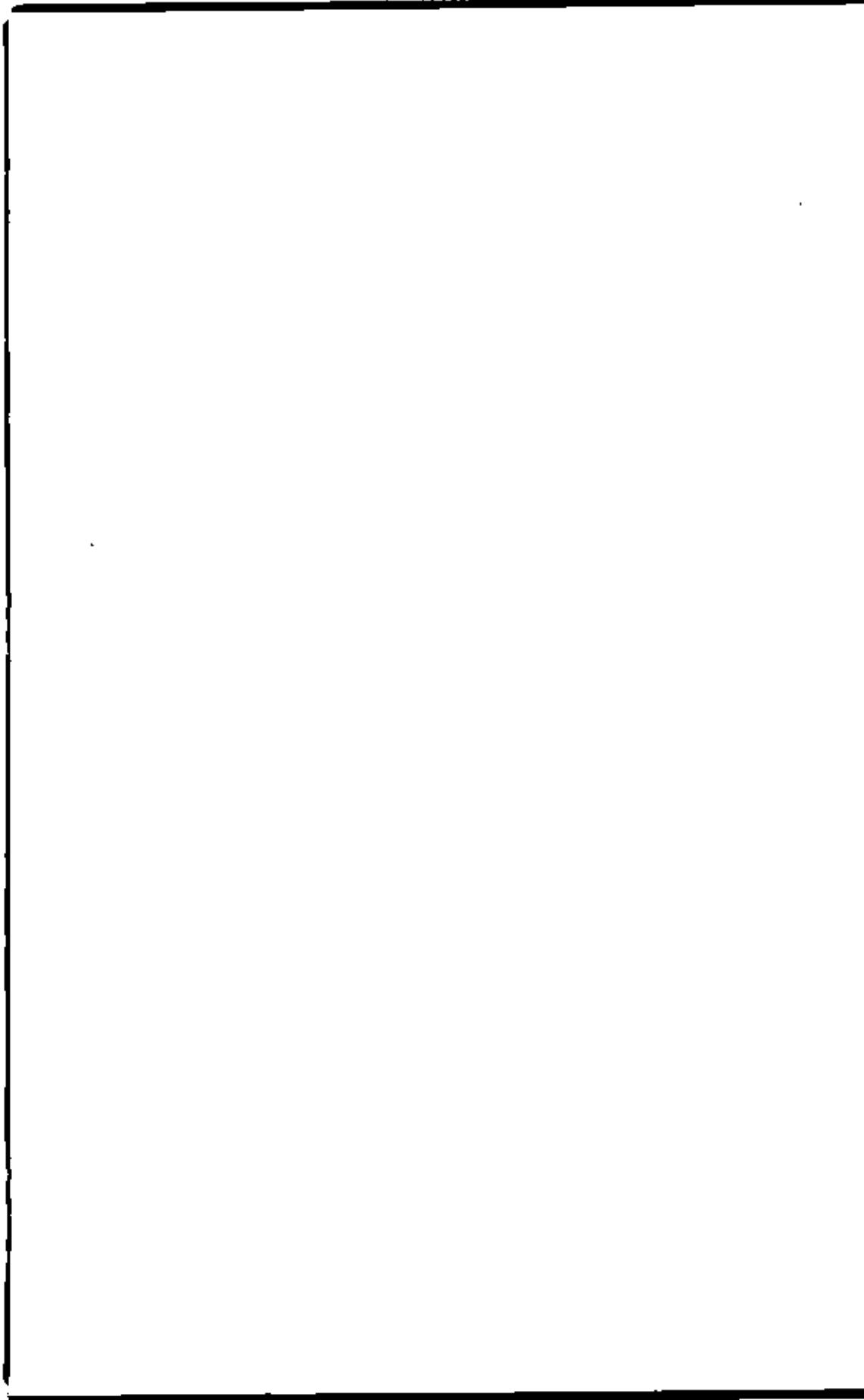




شكل (٣٠)
آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة



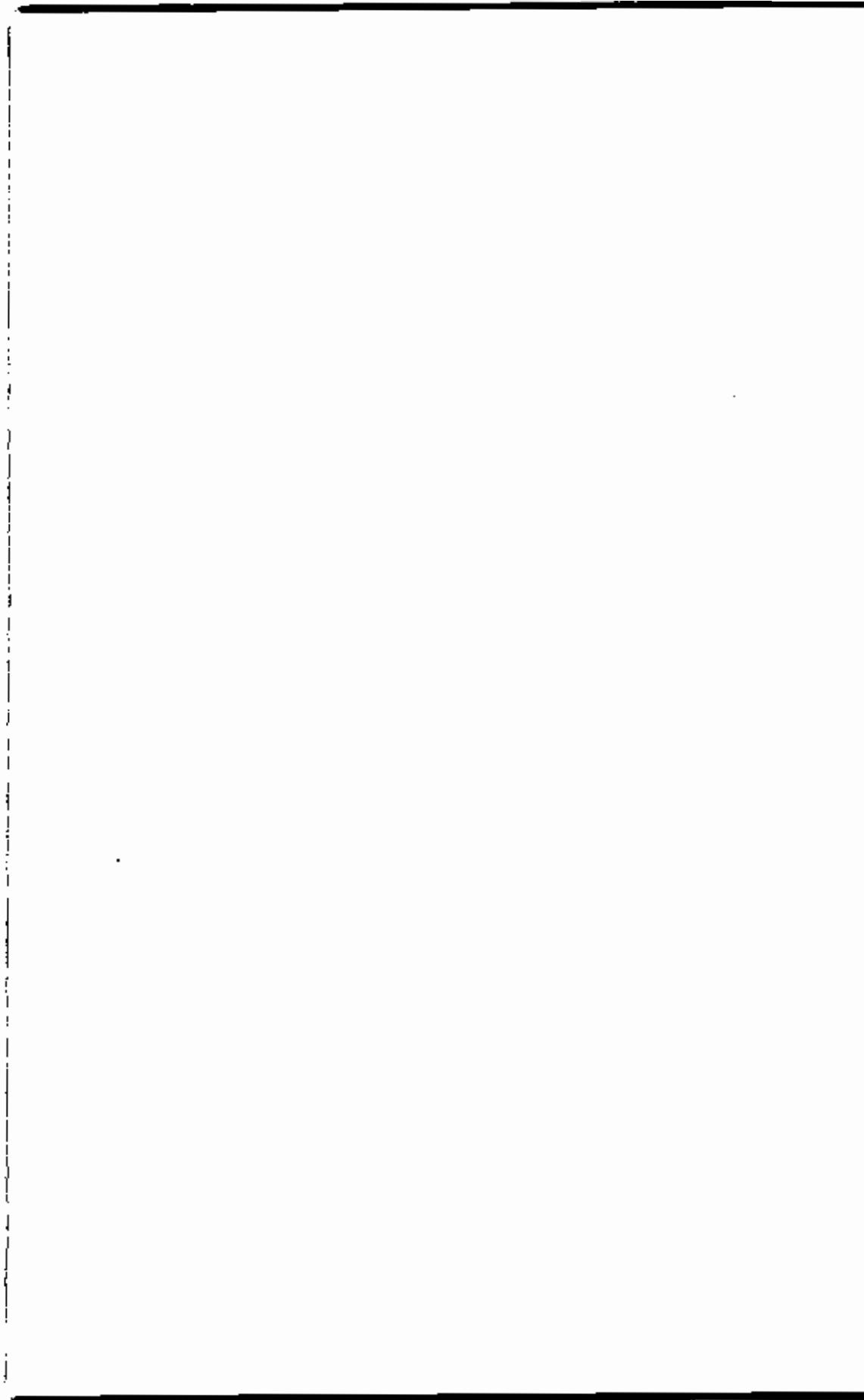
شكل (٣١)
أصحق



Fol 98 r.



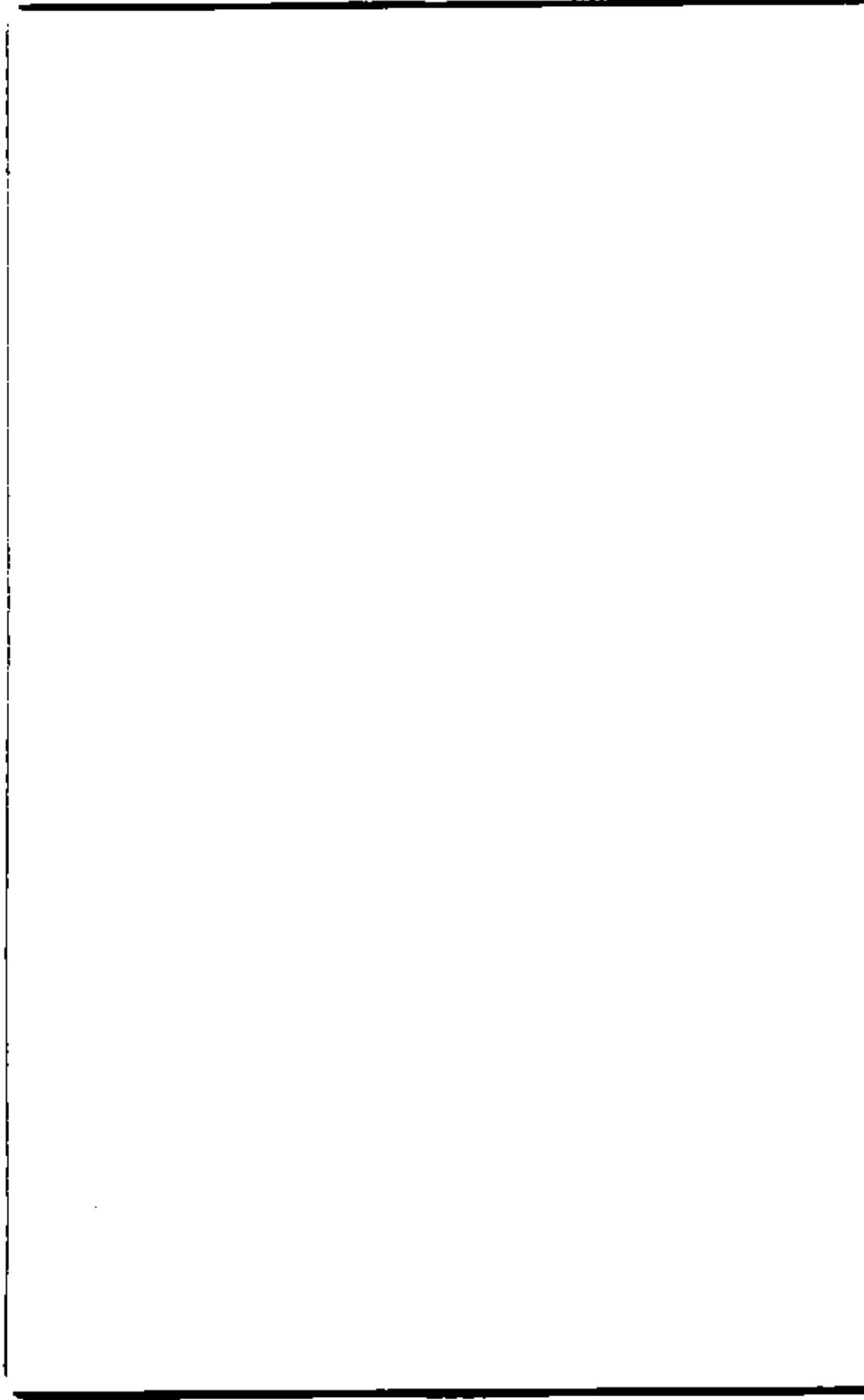
شكل (٣٢)
ذبح أسحق





محل (۳۳)

اعتناق بولص السجدة



Fol. 107 v.



شکل (۳۵)

قصه یونان - (یونس)